وفاء العمير

من هناك..
إلى هنا

رواية

أثر

الطبعة الأولى 2014/1435

أثر

المملكة العربية السعودية- الدمام

تلفون : 00966505774560

الموقع الالكتروني : www.darathar.net

Email: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا االكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات, واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

قالت أمي بأنها نشـأت في بيت يمتلئ بالنسـاء، أمها زوجتي أبيها، وأخواتهـا من أبيها. عالم أنثوي، لا دخل للرجال فيه. مَن يسـتطيع أن يحشر نفسـه بين ثلاث لبؤات، وسـتة عشرة قرداً؟ مع إن إحدى تلـك اللبـؤات وهي جـدتي كانت ضعيفـة، تحاول أن تكـون قوية وتفشـل، ليس لأنهـا تجهل الطريقة، ولكـن لأن اللبؤتين الأخريين كانتا أقوى منها.

عشـن في منزل كان كالقلعة بالنسـبة لهن، قليلا ما كن يخرجن منه، حياتهـن بمجملها تحـدث هناك. كانـت الزوجتان تسـتقويان على جدتي، وتشـكّلان حزباً ضدها، إنه أمر محـزن لكنه حصل، وفقاً لما قالته أمي لي.

أمـي دقيقة جـداً حينما يتعلّق الأمـر برواية ما حـدث لجدتي، برغم أننـي لم أكـن أطلـب منها أن تحكي لي شـيئاً، لكنها لم تكـن تمانع أن تفعل ونحن نأكل، أو نشـاهد التلفزيون، أو في طريقنا إلى التسوّق، أو متخاصمتان. يحدث أن أتخاصم معها، وأغلق عليَّ باب غرفتي، فتظـل تحكـي لي من خلـف الباب، فجـأة تبدأ الحكايـة، مما يجعلني أفكر في أنها قد تكون رغبت في شـبابها أن تصبح كاتبة قصص، ولم يتحقق لها ذلك.

كانـت أمي قد ولدت في ذلك البيت، في مدينة «بريدة» في القصيم، عـام 1945م، أو ربـما 1944 أو 1943، التاريـخ غـير معـروف بالتحديـد. أمي المولودة الأولى والأخـيرة لجدتي، وقد بقيت جدتي بعد ذلـك عاقراً، مما جعل زوجها يقلق، وهي أيضاً تقلق، والعائلة كلهـا والأقرباء يقلقون، وبعد ذلك القلـق تزوج جدي من الثانية، ثم اسـتطاب له الأمـر وختم بالثالثة. وهكذا كان عقم جدتي سـبباً لدخول امرأتين غريبتين إلى المنزل.

تجرعت جدتي الهزيمة، إذ اعتبرتْها هزيمة نكراء في حق حبها لجدي، وحلمهـا أن تبقـى الزوجـة الوحيدة له. تحملت وجـود زوجتيه في حياتهـما، وكان عليهـا أن تفعل ذلـك إذا أرادت أن تبقى في البيت، برغـم كل شيء فهي الزوجـة الأولى، والتقدير لها كما قال لها جدي عندما كان يتزوج الثانية والثالثة.

عاتبتْـه بقلـب مُحطَّم، فقال لها أنـت الغالية، أنت الأولى. وسـكتت عندمـا اعترف لها باعتـزازه لوجودها في حياته، اكتفـتْ بأن تكون رقم واحد.

كانـت أمـي تحكـي لي، ورغم أننـي لم أطلـب منهـا أن تفعل، إلا أنني مع ذلك كنت أسـتمع إليها بفضول شـديد، وكأنني وددت لـو انتقلت بقطار الزمن إلى تلك السـنوات البعيدة لأعرف حياة النـاس هنـاك، مع أنني أعتقد بأن حياتهـم في ذلك الوقت لم تكن تختلـف كثـيراً عـن حياتنـا الآن برغم السـنين التي تفصـل بيننا،

وانتشار التكنولوجيا الحديثة.
بعد إنجاب جدتي لأمي، لم تنجب الأبناء، صارت فقط تراقب ضرتيها تملآن البيت بالأولاد والبنات، ولم يعد الرقم واحد يفعل شيئاً، أو يذكّر جدي على الأقل بالكلمات التي كان قد قالها قبل سنوات.
استحالت الأرقام إلى لا شيء، وفقط كان هناك الحب والدلال والحيل الأنثوية التي تبرع بها الضرتان، وتحاول جدتي أن تفعل مثلهما، أن تحتال لتحصل على القليل من الاهتمام الذي تتذكره في بداية زواجها، وحتى هذا لم تكن تجيده، حتى تحولت حياتهم في البيت إلى مكر وخطط وخداع تجهل هي كيف تتعامل معها؟
تقول أمي إن جدتي كانت محبطة تماماً، وخائفة إلى درجة لا يمكن تصورها، كانت تخشى أن ينتهي حبها من قلب زوجها، وأن تحصل ضرتاها على كل شيء، وتدفعاها لتكون في الهامش.
لا تريد أن تكون في الهامش مرة أخرى، تموت من الرعب إن فكرتْ بأنها ستكون مُهملَة. لقد جربت الإهمال عندما كانت في بيت أبيها من زوجة أبيها، ولا تريد أن يتكرر الأمر ثانية، خاصة بعد أن أصبحت ملكة في بيتها، وكل شيء يجري بأمرها، ولا يتحرك أي غرض في البيت بدون أذنها. ذاقت طعم العزّ، وأن تكون الآمرة والناهية، لكن الأوضاع تتغير، وها هي تنتكس، لتشاطرها اثنتان إدارة المنزل، ثم تترأساه، ليكون صوتاهما هو المسموع، بينما جدتي

تراجعتْ إلى الخلف، وخفت صوتها، حتى أصبح بالكاد يُسمَع!

***

أمر النسـاء غريب تقول أمي وهي تمشّط شعري، كنتُ في منتصف الثلاثينات من عمري. لا تسـتغربوا أن تمشـط أمي شـعري وأنا في هذه السن.

أعـرف بماذا تفكرون؟ لكنها تدللنـي، منذ أن جئت إلى الدنيا وهي تعاملني وكأنه لا يوجد في هذا العالم سواي!. أعرف ستضحكون، هيـا اضحكوا، لـن أمنعكم، لكن أيّ منكم كانـت أمه تحبه إلى هذا الحد، حتى أنها لا تتركه ينمو وحيداً، ويعرف الأشياء على طريقته، ولكـن تكون هي مصـدر كل معلوماته، يرى العـالم من منظورها، ويحب ما يحبه لأن أمه تحبه، ويكره ما يكرهه لأنها تكرهه؟

قلت بأن أمي قالت وهي تمشـط شـعري الطويـل الذي ترفض أن أقصّه لأنه طويل كفاية كي لا يُقصّ. هكذا كانت تفسر الأمر، رغم جهـلي بمعنـاه، ولم أكن أسـتطيع الرفـض، وكنت أقتنع بـما تقول، وأتركه يطول، خصلات طويلة لأنها طويلة بما يكفي لعدم قصّه.

أردد هـذه العبارة وأنا سـارحة الذهن في طريقي إلى المدرسـة، فأنا أعمـل مسـاعدة لمديرة لا تعرف مـاذا تريد؟ فهي تجعـل الجميع في حالـة من التوتـر، والمعلمات لا يعرفـن ماذا يردن لأنهـن يكن مثل الأصابع التي يحرّكها الموسـيقار على مفاتيح البيانو بعصبية شديدة،

المدرسة كلها لا تعرف ماذا تريد، ولكن لا أحد يستطيع أن يجزم بأن ذلك يحدث، فمن الصعب تصديق الأمر وثمّة خريطة لليوم الدراسي يسير عليها الجميع. لكن ما مدى أهمية ما نريد طالما نحصل على الراتب في نهاية كل شهر؟.

هل ابتعدتُ عن الموضوع؟ لا أكاد أعرف عما كنت أتحدث؟ نعم تذكرت، كانت أمي تقول بأن أمر النساء غريب، وقد قالت ذلك لأنها مقتنعة به، كانت مقتنعة تماماً، مقتنعة بشكل أكيد، أمر النساء غريب، إنهن أنفسهن يدركن ذلك، يعرفن أنهن لا ينتمين إلى كوكب الأرض، قد يكن من كوكب الزهرة، هذا أمر وارد.

من قد يصدق النساء؟ النساء لا يُصدَّقن، أي كلمة تقولها امرأة تكون حقيقية، وصادرة من القلب؟ أجهل من أين تأتي كلماتهن، أنا امرأة صحيح، ولا أدري إذا كنت قد قلت الحقيقة في أي يوم من الأيام، أجد ذلك بالغ الصعوبة، كما أنني لست مضطرة له.

سألت أمي لماذا أمر النساء غريب؟ ومددت قدميّ بعد أن كنت أثنيهما إلى صدري، وأطوقهما بذراعيّ. قالت: إنهن يتحولن إلى وحوش عندما يكون الأمر متعلّقاً بالرجال.

كانت مندهشة، لأنها لم تكن تفعل ذلك مع أبي، لم تحبه إلى الحد الذي تحارب الدنيا من أجله، كانت تحبه كزوجها فقط، ولا يتعدى الأمر ذلك، لم تتصور أن تبذل جهداً من أجل أن تبقيه إلى جانبها.

جدتي كانت امرأة ضخمة الحجم، لكن قلبها قلب طفل، ببساطة

يمكن خداعها، وكأن ضخامة حجمها لم تكن سوى لخداع الناس الذين لا يعرفونها عن كثب، ليهابوها.

كانت أمي تضحك على ذلك، وفخورة بنفسها لأنها لا تشبه جدتي في طيبة القلب، لكنها ضخمة مثلها، طويلة القامة، رأسها كبير، جلدها قوي. لو أن جدتي ملكت الجرأة، ووضعت ضرتيها تحت قدميها، وداست عليهما لكان الأمر اختلف تماماً، وكانت ستكون لها الغلبة بالتأكيد، لكنها لم تكن تجرؤ، كانت تخاف، تكوّن لديها هذا الشعور في بيت أبيها، أخافوها بما فيه الكفاية لتظن أنها غير قادرة على الدفاع عن نفسها.

كانت زوجة أبيها تسخر منها، من قدميها الضخمتين اللتين تشبهان قدميّ الفيل. كانت تجمع نساء الحي، وتضحك عليها، وتشجعهن للضحك معها، وكانت جدتي تنظف الأرضية، أو تغسل المواعين، وتسمع ضحكاتهن، وسخريتهن منها، وتصمت، كأنها موافقة على ذلك، كأن كل ما يقلنه صحيحاً، وهي تستحقه.

ألم تتركها أمها وعمرها سنة واحدة بعد أن طُلِّقت من زوجها، لتتزوج برجل آخر، وتنساها؟ هي لا تستحق أي أهمية تُذكر، إنها ليست مهمة بأي شكل من الأشكال، إنها لا شيء.

هل وضحت المعلومة؟ لم تكن شيئاً. كانت مجرد رأس كبيرة، وعينين جاحظتين، وذراعين طويلتين لا تعرف ما تفعل بهما، فتطوحهما ذات اليمن وذات الشمال.

لقد جرى نموها بمشقة كبيرة على الجميع حتى أكون عادلة.
كانت زوجة أبيها تنتظر الوقت الذي تغادر فيه المنزل، لم تكن تحب رؤيتها، كانت لا تنظر إليها أبداً حين تأمرها بشيء، أو توبخها على شيء، بل تنظر إلى الجدار، وكأن الجدار أفضل منها.
أبوها لم يكن يختلف كثيراً عن زوجته، لم يكن يحفل بابنته، لأن أمها قد تركتها له، وهي ليست بذي قيمة. وعندما تزوجت بجدي شعرت بأنها محظوظة، وأن هذا الزواج كان تعويضاً عن حياة العذاب التي كابدتها، وعندما وجدت الاهتمام منه طارت فرحاً، غمرتها البهجة حتى لم تتمكن من فهم شيء.
أتعرفون؟ عندما يحصل المرء على ما يتمنى، ثم يسأل نفسه كيف، ولماذا؟ ويعجز عن الفهم، هذا ما حدث لجدتي.
قلت لأمي: هل كان جدي يحب جدتي؟ لم تجب على سؤالي، وكأنه ما كان يجب أن يُسأل.
قالت بدون مبالاة: ما الحب؟ هل تعرفين يا ابنتي ما هو الحب؟
لم أعرف بماذا أجيب؟ فصمت.
قالت: جدك لا يعرف شيئاً عن الحب، كان معتاداً فحسب على جدتك، أما هي فقد كانت هائمة به، كان هو كل حياتها، ومحور اهتماماتها، لم تفكر إلا به، كان جنتها ونارها، كلمة منه تحييها، وأخرى تميتها، كانت متعلقة به، التعلق يا ابنتي ينتهي عادةً بصاحبه إما إلى الموت أو إلى الجنون. نظرتُ إلى أمي، إلى عينيها، وفمها،

ونضارة خديها برغم الستين سنة التي ترفل بها، كأنما كانت تلك الفكرة: التعلق، حبل مشنقة، تظل تهرب منه طول عمرها. لم تتعلق بأمها، أو بأبيها، أو بتلك الحياة التي تصفها بالتراثية، لأنها كانت ترى بأنها حياة منقطعة تماماً عن التواصل الحقيقي مع النفس، حياة تسير على النقيض مما يريده الإنسان في ذلك الوقت.

عاشت بعض الذكريات الطيبة في طفولتها، هي لا تنكر ذلك، لعبت في الزقاق مع أطفال الحي، وضحكت من القلب، ووصلت ضحكاتها إلى السماء، طارت مع الطيور في الغمام. لقد عرفت معنى الفرح، وزها قلبها بالحياة، قعدت في حجر أمها، شربت من قلبها الحنان الأمومي كله، لكنها رأت أيضاً حزنها، وضعفها، وأنها كانت مظلومة على الدوام، فكان هذا شيء يصعب عليها الصبر عليه وتحمله.

كانت تشاهد أمها تذوق مرارة العلقم كل يوم، وبرغم صغر سنها إلا أنها تعلمت كيف يكون الأمر موجعاً إلى أقصى حد، ولهذا فهي تهرب من الألم، وتحارب الوجع بأمور كثيرة أقلها الضحك.

استرسلتْ في الحياة، عاشتها بكليتها، ولم يستطع أبي مجاراتها، كانت تحاول أن تحلم أحلاماً جميلة، تنتشر على طول عمرها وعرضه، وقد بهرت أبي بذلك، فهو قد عاش لدى أسرة لا يظهر أفرادها مشاعرهم في العلن، كأنهم لم يكونوا يحبون بعضهم البعض، ويبقون معاً بسبب رابطة الدم فقط، لكن أبي يدرك أن

هذا غير صحيح.
كان لـدى والـده مزرعة تمور، وهو لم يدلـل ولديه قط، أبي وعمي، لأن الـدلال كـما يقـول يضر بـالأولاد، لهـذا فقـد كان أبي يتأمل ما كانت أمي تفعله بحياتها، ذلك النشاط الأخاذ، كان كل شيء حيثما تكون أمي يتدفق.
لم يكـن يفهم كيف يحصل هذا؟ كان غريباً عليه أن يعاشر مثل تلك الحياة.
كانـت أمي عـلى النقيض مـن أبي في كل شيء. قالت بأنهـا تزوجته لتجـرب الثيـاب الجديـدة، وليكون الضوء مُسـلطاً عليهـا، ولتثير غـيرة أخواتها وحسـدهن لأنها حصلت على تلـك الثياب، ولتضع مسـاحيق الزينة على وجهها فقد كانـت تُمنع من ذلك قبل خطبتها.
قالـت لي بأنهـا لم تكـن تعـرف أبي من قبـل، تزوجت وهي في سـن السادسة عشرة أو السابعة عشرة.
كانـت في تلك السـن قد بلغ طول قامتها مائة وسـبعين سـنتيمتراً.
عندمـا رآهـا أبي في ليلة زفافهـا هاله هذا الطول، لم يحبـه أبداً. كان يحـب المرأة قصيرة القامـة. لم يكن أبي قصير القامـة فيما لو خطرت هذه الفكـرة على أذهانكم، ولكنه كان حـين يقف بمحاذاتها يصل إلى كتفها مما يسبب له الإحراج أمام أهله وأقربائه.
عندمـا وصفتهـا أمه له لم تذكر طـول قامتها، وصفـت عينيها وفمها وشـعرها وصفاً تفصيلياً، قالـت كل شيء عنها، أمّا طول قامتها فلم

تذكره، وكأنه لم يكن بارز الوضوح، ولم يستحق الملاحظة.
قال أبي لأمي إنه لا يحب المرأة طويلة القامة. كان متهوراً عندما أخبرها بذلك، أيّة امرأة لم يكن يعجبها أن ينتقدها زوجها، فتشاجرت معه، وانقطعت عن محادثته عشر أيام. كانا خلالها يعتمدان عليّ في التفاهم حول شؤون المنزل: يا باسمة قولي لأمك إني جلبت الأغراض التي طلبتها، وكانت أمي قد أعطتني ورقة لأعطيها لأبي فيها قائمة بالأشياء التي تريدها من السوبر ماركت. وهكذا مرت العشر أيام كأنها عشر سنوات، وحين يجلسان في الصالة لمشاهدة التلفزيون يدير كل منهما وجهه عن الآخر، وإذا نهضت أمي، ومشت، كانت تتعمد أن تجعل قامتها مستقيمة، كأنها تقول له إذا لم يرضك طولي فافعلْ ما شئتَ.
كان أبي يستغرب من ردة فعلها العنيفة، يقول: ألا تحتمل الكلام؟ ماذا لو رأت كيف نعامل بعضنا البعض في عائلتي؟ هل كنا نعرف ما هي رهافة الحس؟ هل كان أحدنا يمتنع عن الكلام مع الآخر؟ لو زعل الواحد منا لما انتبه إليه أحد. لو حبست نفسي في غرفتي، ولم أتناول غدائي، لبقيت جائعاً طوال اليوم، وما وجدت شيئاً آكله، لأن والدي وأخي يكونان قد قضيا على الطعام كله، وكأنها سُرّا لأنني تخليت لهما عن نصيبي منه، قائلين: من يأكل على ضرسه ينفع نفسه.
حقاً، من أي عالم جاءت أمك؟ لا تحتمل كلمة أقولها، كلامي لا

يعجبها، أنا كلي لا أملأ عينيها، أنا من عالم، وهي من عالم آخر، جمعنا عقد الزواج فقط، حتى أنها لم ترد إنجاب الكثير من الأبناء، بعكسي، فقد كنت أود لو ملأت البيت بهم.

أحب سماع أصوات الأطفال، وملاعبتهم، وسماعهم ينادونني بابا. قبل زواجي من أمك كنت أحلم أن يكون لي ثمانية من الأبناء، لكنها لم تكترث لحلمي، أنجبتك واكتفت بذلك، قالت بنت واحدة تكفي، هل أنا مفرخة أطفال؟! وحرمتني من متعة أن يكون لي أولاد أشد بهم ظهري، ويكونون عكازاً لي في كبري.

قلت له: هل تفضل لو أنك أنجبت ثمانية أولاد بدلا مني؟

قال: كيف تقولين ذلك؟ أنت عندي بالدنيا كلها، أنت الشيء الوحيد الجميل الذي حصل لي في حياتي، لن يعوضني عنك أحد.

***

كان أبي يعيش سنوات عمره الثمانية والستين بهدوء عميق، السنة تلو الأخرى، لا يكترث لمشاعره كثيراً، أجهل في كثير من المواقف كيف يكون شعوره؟ ليس لديه فكرة واضحة عن الحياة، يمر مروراً عابراً على الأشياء، لا ينظر إليها مليّاً، محافظاً قدر استطاعته على صمته. هذا الصمت المقيت في نظر أمي، والهدوء الذي لا تضع له تسمية محددة، فهو ليس بشيء البتة، إنه مجرد عدم وجود، إنه يكاد يكون غير موجود. كما لو كانا جبلين لا يلتقيان، لا شيء

يتشاركانه، إنها حياة مقضي عليها بعدم التفاهم، بتجاهل كل منهما للآخر، رغم أنهما معاً لأكثر من أربعين عاماً. لا أدري إذا كان أبي يحب أمي الحب الذي نقرأ عنه في الروايات، ونشاهده عبر المسلسلات العربية.

حين أفكر بعمق في علاقتهما ببعضهما يتملكني الغضب، وأحتار في كيفية نظرتي إلى الحياة، إنهما قدوتي، وكان يجب أن يعلماني لأستطيع مواجهتها، والتغلب عليها، لكن لا، فهما يحاربان بطريقتهما الفاشلة، وكأنهما قطعة ساندويتش في فم الدنيا، تلوكها على مهل.

***

هل فكرتم وأنتم صغار أن تكتبوا أمنياتكم في ورقة لتنظروا إذا كانت قد تحققت عندما تكبرون؟ أعرف أنها فكرة سخيفة، مثالية، كما في الأفلام الأمريكية، لكن نحن فعلناها، أعني أنا وصديقتي علياء. كان ذلك منذ سنوات بعيدة. كنا حينها في التاسعة من العمر، اتفقنا على أن تكتب كل واحدة منا أمنياتها في ورقة، ونضع الورقة في صندوق، ونخفي الصندوق في حفرة داخل فناء منزلي، وعندما نكبر نخرج الصندوق، ونقرأ ما كتبناه، ونرى إذا كانت أمنياتنا قد تحققت.

أنا تمنيت أن أكبر بسرعة، لأتعرّف على العالم، كنت متلهفة لذلك، وكأنني سأجد ما يستحق لهفتي. لم تقل لي علياء ماذا تمنت؟ ظنّاً

منهـا بأنها إذا فعلت فلـن تتحقق. لقد كانت مجرد خزعبلات، لكن يا للدهشة كم كنا مؤمنتين بها!

تمنيت أن أتحرر، كتبت ذلك في الورقة، حين كنت أنا وعلياء تعطي إحدانـا ظهرهـا للأخـرى، منغمسـتين في الكتابـة، بحـماس وهمة بالغـين. كتبـت أنني أتمنـى أن أنام في أحـد الأيام وأسـتيقظ لأجد نفـسي قد تحولـت إلى طائر صغير، حتى لا يـراني أحد، وأتمكن من الرحيل إلى أي مكان أختاره. أردت أن أمضي في الحياة محلقة، بدون أذرع تشدني إلى الأرض. لقد ملأتُ الورقة بمثل هذا الكلام.

كانـت الأحـرف من فـرط سرعتـي في الكتابة تتداخل مـع بعضها فيصبح من الصعب قراءتها. لقد بلغت حماستي أشدها. كنت موقنة بأن كلماتي تلك ستصبح في يوم ما واقعاً، كان ذلك مخيفاً جداً، وغير واقعي، أشبه ما يكون بخرافة صدّقناها كما حُكيت لنا في القصص.

كانـت علياء هي الأخـرى منحنية على ورقتهـا تكتب وكأنها كانت تخفي شـيئاً عزيزاً على نفسـها في مكان لا يعرفه سواها، هي التي لا يوجـد شيء خاص في حياتها، فكل ما تفعله معروف لدى عائلتها، حتـى باب غرفتهـا كان مفتوحاً طـوال الوقت، يدخـل إلى غرفتها الجميـع، ولم تكـن تُعامَل كبنـت ولكن كفـرد في الأسرة، إذا طلت شفتيها بأحمر الشـفاه ضحك عليها أخوتها الخمسة الذين يكبرونها في السـن والأصغر منهـا. أعتقد بأنهم كانوا ينظـرون إليها على أنها أخوهم السـادس، كانوا يجعلونها تقف كحارس مرمى في لعبة كرة

القدم التي يلعبونها في منزلهم، ويسددون إليها ضربات قوية، وهي كانت تهرب من حراسة المرمى حين لا تقوى على صد الكرات العنيفة، فيضحك عليها الفريق الخصم، ويوبخها الفريق الذي تلعب لصالحه.

كانت فتاة مسكينة بين زمرة وحوش، وكان الأخوة الكبار يجدون متعة كبيرة في إصدار الأوامر إليها: علياء هاتي لي كأساً من الماء، أرفعي صوت التلفزيون. وكان أخواها الصغيران يسخران منها وهي تمشي قائلان بأن مشيتها تشبه مشية البطريق! وإذا بللت ثوبها بحساء المرق وهي تتناول طعامها ضحكا عليها حتى يستلقيان على ظهريهما. لم تكن الأم تدافع عنها، والأب دائماً مسافر. يقول الجيران بأنه طلّقها ثم أعادها إلى عصمته، وهي تخفي الأمر، حتى لا يشمت بها أحد.

كان زوجها يملك سيارة داتسون حمراء. وفي المرات القليلة التي كان يحضر فيها إلى البيت، يركن سيارته بجانب جدار المسجد في رأس الحارة، وقد كان ركوب السيارة أمراً نادراً في ذلك الوقت، وتجربة لا تحدث سوى للمحظوظين.

لابد أنه كان يجوب بسيارته هذه أنحاء العالم. لقد رأيته مرة أو مرتين، كان رجلا مختلفاً، واعتبره الجيران دائماً رجلا غريباً، لأنهم لا يعرفون عنه شيئاً، كان يأتي لبضعة أيام ثم يغادر في صمت، دون

أن يجتمع مع أحد من رجال الحارة، وكانت علياء تتشبث بثوب أبيها إذا أراد السفر، وتبكي بحرقة راجية منه أن لا يغادر، كانت تقول له خذني معك، لا تتركني هنا.

كان شديد اللطف معها، ومراعياً لمشاعرها، يدللها طوال الوقت، ويسميها علیائي، ولم يكن أي من أخوتها يتعالى عليها، ويتحدث معها بطريقة غير لائقة أمامه، لأنه لو فعل فسيتلقى حتماً منه صفعة قوية على صدغه، أو رفسة على قفاه، قائلا له: ألا تستحي تكلم أختك هكذا؟ كم أخت لديك؟ هل هن عشر؟ إياك أن أسمعك تسخر منها ثانية.

كانت علياء تجد في أبيها السوبرمان الذي يدافع عنها، وينتصر لكرامتها، تشعر معه بأنها كائن بشري مهم، له وجود، وقادر على الكلام والضحك بتلقائية، وهو سعيد بنفسه وبمن حوله. لم تكن فتاة قاسية القلب، ولا حقودة، ومهما كان فهؤلاء أخوتها، وستظل تحبهم مهما قسوا عليها، وتلك أمها وإن تصرفت بسلبية ناحيتها.

أستطيع الآن أن أخمن بأن ما كتبته علياء في ورقة أمنياتها كان كله عن رغبتها في البقاء مع أبيها، وأن ترافقه أينما ذهب، كانت تريد أن تستمر في الشعور برأفته نحوها وحنانه عليها.

أتمنى لو أعرف الآن إن كانت أمنياتها قد تحققت، سيكون هذا

باعثـاً على الأمـل، على الأقل شيء صغير جميـل يحدث في هذا العالم.

***

تقول أمي: كان جدك يملك أرضاً زراعية، الكثير من النخل الذي يحادثـه، يقـول له كل ما يخطر عـلى باله. كان يحرث الأرض، يشـم رائحة التراب، يسـقي الزرع، ينظر إلى الطيور على سـعف النخيل، يبتسـم، يقهقـه، يفـرد ذراعيه السـمينتين، يرفع رأسـه إلى السـماء، يستنشـق بعمق الهواء الرطب، وكأنه سـيفعل ذلك للمرة الأخيرة، يعتنـي بالنخـل، يقلّـب حبّات التمر بـين أصابعه، يهتـم بكل ذلك بنفسه برغم أن لديه الكثير من العمال.

لم يكـن وهـو شـاب يملك أرضـه الخاصـة بـه. كان يعمـل أجيراً لـدى أحد ملاك الأراضي الزراعية. عَمِل سـاعات طويلة كل أيام الأسـبوع ما عدا يـوم الجمعة، لأنه يوم إجازته. بـذل جهوداً كبيرة لتعلّم هذه المهنة طوال عشر سنوات.

كان أبوه تاجر أقمشـة، وكان أبناؤه يعملون في هذه التجارة أيضاً، ما عدا جدك الذي كان يعشـق الزراعـة. لم يعترض أبوه على ذلك، بـل لم يكن لديـه الوقت كي يفكر في الأمـر، كان أبناؤه يحيطون به، فقد كان ضمان حياتهم ومسـتقبلهم، يضيعـون بعيداً عنه، طريقهم

هـو طريقـه، بينما جدك كان أمراً آخر، كان يسـتلقي في فراشـه قبل النوم، ويحصي نقوده، وكان الأمل يكبر في قلبه.
لم يكن جدك رجلا قاسياً على نفسه، لا أبداً، كان يقسو فقط على من يريد من زوجاته وأبنائه، ووقتما يريد، أما مع نفسه فقد كان رحيماً، أم يمكن أن نقول أنانياً؟ هل تفضلين هذه التسمية يا ابنتي؟
أنظـر إليهـا، ولا أحـير جواباً مرة ثانية، تخرسـني أسـئلتها المباغتة، كأنما تختبرني لتعرف كيف أفكر؟ هل أنا ضعيفة أم قوية؟ هل أنا كما تظـن؟ لكني لا أعـرف تكهناتها نحوي، هل تعرفنـي حقاً أكثر من معرفتي لنفسي؟ لكني أجهل نفسي تماماً، ماذا أعرف عنها؟ أنا بنت في الخامسـة والثلاثـين من عمـري، لم أتزوج بعد، هـذا واضح من خـلال السرد السـابق، جميلة، لكن بماذا يفيدني جمـالي؟ أحياناً أفكر أن الأمر سيّان سواء كنت قبيحة أم جميلة.
يقولـون إني جميلة، لكنـي لا أعرف هل أنا حقـاً كذلك؟ وهل هذا يهـم؟ أعتقد بأن أمي تقول عني في نفسـها: ليسـت هذه البنت هي نفسـها عندما كانت طفلة، وشابة صغيرة، التقدّم في العمر يرهبها، تخـاف أن تمـوت في أية لحظة، حـين أمشي معها في السـوق يراودني شعور بأنها قد تختفي فجأة من أمامي.
كانت فيما مضى عبقرية، أسـتطيع أن أقول ذلك عن ابنتي، جنية في ثـوب أنس، تتقدم الآخرين دائماً بعدة خطوات. هل تشـعر بالكآبة

لأنها لم تتزوج بعد؟ هل الزواج مهم إلى هذه الدرجة؟ إنها إذن غبية إذ تفكر بذلك.

***

لا أعرف هل يجب أن أكون تعيسة أم ممتنة لأني أشغل هذه الوظيفة؟ الصباح جميل، نعم لم أقل شيئاً، تصلني أصوات العصافير التي تترنح على الأرض في حرارة الشمس، رغم أن الساعة لم تتعد الثامنة صباحاً.

الحصة الأولى، هذا يعني أنه لم تزل هناك بعد ستة حصص أخرى! نهار طويل، ودقائق لا تكاد تنتهي. أحاول أن لا أنظر إلى الساعة المعلقة أمامي على الحائط. أحارب الملل بكل ما أستطيع، أتظاهر بأنه لا يعني لي شيئاً، السعادة زهرة تتفتح على طاولة العمل، المدرسة بستان فرح، بهجة متواصلة، جزء جميل من حياتي، ست ساعات مُقتطعة من يومي على مدار العام، ألا يجب أن أحبها لكي أستطيع الاستمرار بمعنويات مرتفعة؟!

أسجّل أسماء المعلمات الغائبات في جدول الاحتياط، وأسماء المعلمات الحاضرات اللاتي سيأخذن حصص الاحتياط. عمل لا يبهجني القيام به، وأي بهجة في إعطاء معلمة حصة إضافية على

جدولها المكتظ بالحصص؟ وكيف ستقابل الأمر؟ في الغالب تسرع بالقـدوم إليّ وبيدهـا ورقة الاحتياط، وهي تشـتعل غضباً، لكن ما العمل؟ أقول لها.

تعطي المسكينة بعض الاقتراحات لكنها بلا جدوى.

تقـول لي كحـل أخـير: أغلقـي بـاب الفصل عـلى الطالبـات حتى انتهـاء وقت الحصة. أقول لها: لا أسـتطيع أن أتـرك الطالبات دون معلمة، والله يجعلن الفصل ملعب كرة قدم، ويتسكعن في الممرات، ويزعجن بقية الفصول.

وهكـذا ينتهـي الحـوار البليد الـذي تكرر مئـات المرات. تسـتدير المسـكينة عائـدة، وكتفاها يهبطـان من الحزن، وتشـعر بأنها مغلوبة على أمرها.

ياخالة أم زياد، يا خالة أم زياد.

الخالـة أم زيـاد بالـكاد تتحرك من على كرسـيها، تعاني من السـمنة المفرطـة. يومياً تمضي خمس أو عشر دقائق قبل أن تجيب على ندائي. تتبـادل الأحاديـث مع الخالة أم علي، أو مع وليّـات أمور الطالبات الزائـرات، والأدهـى عندما تمشي نحـوي، تشـعرني بالذنب وهي تسـير بتثاقـل. لقد عملـتْ في هـذه الوظيفة لتجلس عـلى الكرسي فحسـب. خذي هذه الورقة لو سـمحتِ إلى غرفة المعلمات. تسـير

مبتعـدة بنفـس الطريقـة، لابد أنني قاسـية القلب لأطلـب منها أن تقوم بعملها.

❊ ❊ ❊

لم يكـن هذا مـا توقعته لحيـاتي، لم أكن أحلم كثـيراً، وطموحاتي لم تكـن مُبالغـاً بهـا، كنـت مقتنعة دومـاً بما حققتـه: انتهاء دراسـتي الجامعيـة، وحصولي على الشـهادة بتفوق، ثم عمـلي كمعلمة لمدة خمس سـنوات، وانتهاءً بعملي كمساعدة منذ خمس سنوات أيضاً. جو المدرسة مُعتادة عليه منذ أن كنت طالبة، ولهذا لم أشعر بأني قد قمت بتغيير في حياتي. منذ السن السابعة وأنا متآلفة مع الفصول، والساحات، ونظام دق الجرس.

لا شيء تقريباً قد تغيّر، غير أنني بعد أن كنت مُسـيطَراً عليّ من قبل طاقم المدرسة الإداري، صرت أنا المُسيطِرة بحكم أني أصبحت من ذلك الطاقم.

نجلـس نحـن المسـاعدتان، والإداريات، ومعنـا أحيانـاً معلمة أو اثنتـان، على الكراسي حول الطاولة الكبيرة، نتناول التمر، ونشرب القهوة، الفطور الصباحي الأول، ثم يليه الفطور الثاني الذي يكون من بداية الحصـة الرابعة حتى نهايتها، نطلب عن طريق الهاتف من

المطعـم القريب من المدرسـة فولا، وفلافل، وسمبوسـة، وزيتونًا، وخبـزًا، ومـا إلى ذلك، رائحـة الفطور تمـلأ الغرفة، يقوي شـهيتنا للطعـام الكثـير من الأحاديـث المرحة، وتناقل الأخبـار، بعد ذلك نواصـل عملنـا بمِعَـد امتلأت عـن الآخر. المديـرة تفطـر معنا إذا تنازلـت ذلك اليوم، وقبلت أن تشـاركنا الطعام، وإلا فإن فطورها تأكله لوحدها في غرفتها التي لم تكن تبعد عن غرفتنا كثيراً.

مدرسـتنا مُسـتأجرة، نسـيتُ أن أقول ذلك، منزلان بينهما سـاحة. يحتـوي المنزل على غـرف، ومجالس للنسـاء، وللرجـال، وحمّامات صغيرة.

ما زالت آثار الحديد التي تُثبّت عليها الستائر واضحة على الجدران.

نواجه مشكلات في الكهرباء بين حين وآخر، تُصاب بالعطب حينما يزداد الضغط عليها في فصل الصيف. تقوم الخالة أم زياد، أو الخالة أم علي بفتح صندوق الكهربـاء المُلصق بالجدار، وبخطوات خبيرة تصلحها.

عـدة مرات انتشر الدخان مـن أحد الأسـلاك الكهربائية القديمة، أو مـن مكيـف الهواء قبـل أن يتوقف عن العمـل، وتخرج المعلمات والطالبـات مذعـورات من الفصـول، لكننا نعيدهـن إليها بعد أن نتأكد من زوال الخطر، ثم تسير الأمور على ما كانت عليه.

لسـنا مُتطلِبات كثيراً من أجل العملية التعليمية، الموجود كافٍ كي تدرس الطالبات، وينجحن، ويحصلن على شـهاداتهن، وينتقلن إلى سـنة دراسية أخرى، ونحن نقبض الراتب، ونعيش حياتنا، وهكذا فكل شيء على ما يرام.

أحـب عملي، وأن أنهض صباحاً لأذهب إلى مكان ما، ليكون هناك شيء مـا أعملـه. لا أتصـور حيـاتي بدون القيـام بأمر مـا، لابد أنها سـتكون مُهلِكـة، لأنني قد اعتدت على القيـام بالأمور، فإن تجلس هكذا، لن يدعك عقلك وشأنك مطلقاً، لهذا أشغلهُ طوال الوقت، كأنه طفل أسكتهُ عن البكاء بالألعاب.

لا أحتمـل ثرثرة الأفكار، فهي تعض عقلي، وتتصارع معي، لمجرد إرباكـي، ولملازمتي فترة أطول، حتى تكون هي المتسـيدة، صاحبة الأمـر النافذ، تجعلني أفكر في ما سـبق حدوثه، وتعيـده إلى ذاكرتي ثانية، أراه أمامي، ولا أجد حيال ذلك مخرجاً.

أمي تحكي لي كل ما تستطيع أن تتذكره، كل ما يعنيها أمره، وبمجرد أن تحكيـه فعـليّ أن أتعاطف معـه، أن أصمت وأسـتمع، لأن ليس لديّ شيء آخر أفعله.

أنا في البيت، وهي كذلك، وكيف علينا أن نمضي الوقت؟

تقـول أمـي إن جـدتي صـبرت كثـيراً على تجاهـل زوجها لهـا، كان

يـأتي إلى البيـت، ويذهب مبـاشرة إلى زوجتيـه الجديدتين، ويقضي سـاعتين عند كل واحـدة منهما. تعرف الوقت لأنهـا تنظر إلى الظل في باحة المنزل. ويخرج منهما ضاحكاً متهللا، يكاد يطفر من وجهه الدم لشـدة سروره. وغرفتهـا لا يصلها، تنتظر هناك، جالسـة على سريرها، لا شيء، لا أحد يأتي، باب الغرفة يبقى مغلقاً، كأنه مُقفل بألف مفتاح، لا صوت، لا نفَس، لا حرية لهذا الشـعور المُتعرِّق في داخلها.

تفضي إلى السقف بحزنها، بامتلاء قلبها بالتعاسة، وبخيبة الأمل.

لقـد عاد كل شيء للظهور ثانية، هاهـي تُقاد إلى الألم من جديد، ها إنهـا تمـوت ميتتها الألـف التي تعرفهـا جيداً. نعم هـي تعرف هذه الميتـة، لقـد تعرّفت عليها من قبـل، حفظتها، لاقتها مراراً، ليسـت غريبـة عليهـا، ها هـي تكتظ بالمـرارة، تشربها من دمهـا، ريق فمها عتيـق، بيوت عناكب تسـكن فيه، أيـن ذلك الشـعور الرائع الذي تذوقته قبل قدوم هاتين المرأتين؟

هـي لم تعرف أن ذلك الشـعور كان اسـمه الحب، هـي لا تعرف ما الحب؟ لكنها لامسـته، بل غرقت فيه حتى أذنيها، هي لم تزل تحبه، مـا زالت تـرى بأنه رجُلها، لن تتخلى عنه مهما كانت الأسـباب، ما زالـت باقية عليه، مـا زالت تلثم ثيابه المُعلَّقة على المسـمار، ما زالت تشـم رائحته في غرفتها، تقول لنفسـها إنه لي، وإن ظل مع سـواي.

لقد شـعرتُ بالشـفقة تجاه جدتي، لكن لم أجـد في ضعفها ما يبرره، حاولـت إنصافها، والدفاع عنها فيما بينـي وبين نفسي، حاولت أن أتقبّل ما هي عليه، لكن لم أستطع.

كيـف نقوى على قتل أنفسـنا هكـذا؟ على القضاء عـلى كياننا بمثل هذه السـهولة؟ على التعلق بأشخاص، مجرد أشخاص ضعفاء هم في حقيقة الأمر مثلنا تماماً؟ لماذا هذا الاسترسال في التيه؟ لماذا نضيع في الآخرين؟ لم أفهم ذلك مطلقاً.

ربتـت أمي عـلى كتفي عندمـا رأت صمتي، هي أيضـاً لم تفهم لماذا كانت أمها تفعل ذلك؟ كان يمكن أن تنجو بنفسها، أن تعيد ترتيب حياتهـا، أن تجـد ذاتها مهـما طال الـصراع القائم بينها وبين نفسـها، فستعثر في النهاية على معنى لحياتها.

مـن قـد يفهم تصرفات غريبة مثـل تلك؟ إنه عالم موشـوم بالغباء، ساخراً من نفسه عن طريق تعذيبها قدر ما يمكن.

***

مـن الأمور الغريبة التي قـد تحصل لطفلة هي أنهـا يمكن أن تقول كذبـة غـير معقولـة، دون أن تتوقـع الأسـوأ. سـأشرح لكـم ماذا أقصد؟ غالباً ما أجد صعوبة في تذكر المعلومات التي كنت أتعلمها

في المدرسة، لكنني أتذكر بوضوح ضرب أكفنا بالمساطر.
عندما كنت في الصف الثالث ابتدائي مددت يدي في أحد الأيام في استكانة وتسليم، لأُعاقب، وأتلقى الضربات، وأتألم، لأنني كذبت دون مبرر من وجهة نظر المعلمة.
كان يمكن لهذه الكذبة أن تُنسى فحسب، لكن كان على الطفلة أن تتعلم ألا تكذب مرة أخرى، لأنها إن فعلتْ فستكون نهاية العالم، وسينفجر الأوزون أخيراً، ستتقاتل عصابات الدِول، ولن يبقى أحد حياً.
كانت كذبة مُبتكَرة، لا تطرأ بسهولة على ذهن أحد، ظهرت فجأة في رأسي كنبتة شيطانية، وكان عليَّ أن أتحمل سخرية أهلي مني بشأنها لسنوات عديدة بعد ذلك. كنت قد ذهبت في الصباح إلى المدرسة متأخرة، وخفت أن تضربني المعلمة، فخطرت لي هذه الفكرة: إذا سألتني المعلمة: لماذا تأخرت؟ سأقول لها: أمي ماتت. لم أفكر كيف ستنتهي هذه الكذبة؟ لم أعتقد أنها يمكن أن تنكشف بسهولة، اعتقدت أنني إن قلت ذلك فسأسلم من العقاب.
نظرت إليَّ المعلمة بإشفاق، وتقدمت ناحيتي بخطى بطيئة، متحرزة أن تثير فزعي، ربتت عليّ بحنان لم أعرفه منها من قبل. وجدتُني أبكي، لقد آلمني ذلك الإحساس بالفقد، رغم أنه لم يكن حقيقة.

طلبت مني المعلمة أن أدخل إلى الفصل، وأجلس في مكاني المعتاد. جلستُ بهدوء على مقعدي في الصف الأول، وفتحت حقيبتي الجلدية، أخرجت الدفتر، وفتحتهُ على الصفحة الفارغة، وبدأت أنقل بخط مضطرب الكلمات التي كانت مكتوبة على السبورة.

التفتّ إلى الطالبات، كن منشغلات بالدرس، اثنتان أو ثلاث نظرن نحوي في حنق وهن يتهامسن، لكني لم أكترث لهن.

اتجهت المعلمة إلى خزانة خشبية موضوعة في زاوية الفصل، وأخرجت منها بعض السكاكر والحلويات، قدّمتها لي بصمت الجنائز، كانت الشوكولاته مغطاة بورق بني لامع، مثني من الطرفين. أخذتُها، وأكلتها بروية، فيما كنت أحاول جاهدة أن أجعل الكلمات على الورقة لا تخرج عن الخط الأسود المستقيم، كما طلبت المعلمة.

عندما دق جرس انتهاء الحصة لم أغادر مكاني، بدأتُ في مسابقة تحدي مع صديقتي التي تجلس إلى جانبي على أن أنتهي قبلها من كتابة القطعة المقررة علينا في كتاب القراءة، وهي عن أهمية الماء، من أربع أسطر فقط، وكانت فرضنا المدرسي لذلك اليوم. بدأت في نقل الكلمات في سرعة كبيرة وأنا أتباهى بذلك. فجأة وقفت أمامي طالبة ليست من فصلي، تمضغ العلكة، وتبتسم، وكأنها لطالما فعلت ذلك. قالت لي إنني مطلوبة في غرفة المعلمات.

كانـت غرفة المعلمات مكاناً محظوراً علينـا نحن الطالبات الوصول إليه، ولم يكن أحد منا يجرؤ على الذهاب إلى هناك، وفي بعض المرات حين كنت أضطر إلى الذهاب إلى قسم الإدارة بصحبة عريفة فصلي، لتقوم بتسـليم الورقة التي كتبت فيها أسـماء المشاغبات إلى الموظفة الإداريـة المسـئولة عن ذلك، كنت أحرص عـلى أن أبقى واقفة على مسـافة بعيـدة من تلك الغرفة، وكنت أنظـر إليها بخوف وورع كما يُنظر إلى مكان مقدس.

كانـت المعلمات مخلوقات مبجلة بالنسـبة لنا، وكأنهـن قادمات من كوكب آخر، لم ننظر إليهن مثلما ننظر إلى بقية الناس، ولم نتصورهن يأكلـن أو يشربن أو يذهبن إلى الحمام أو يطلقن الريح. تسـتطيعون أن تتخيلوا الهلع الذي أصابني حين وصلتْ إليَّ هذه الدعوة المريبة. سرتُ بخطوات متوازنة، خفيفة، على بلاط الساحة الباهت، أراقب الشـقوق المتعرجـة التي تقسـم البلاطة إلى نصفين غير متسـاويين، بعـض قطـع البـلاط كان مكسّراً ومفتتـاً، وحين كنـت أدوس على الحصى، كانت أصابع قدمي ترتفع بشكل محدودب داخل الحذاء. كان رأسي فارغاً، لكن قلبي كان يقول لي إنني أشد غباء من خروف. حينما وصلت إلى غرفة المعلمات، رأيتهن جالسات في صفٍّ طويل مـن الكـراسي أمـام مكاتبهن التـي امتـلأت سـطوحها بالدفاتر. لاحظتُ معلمتين كانتا تجلسـان في آخر صف الكراسي تضحكان

مـن هدوئـي، أو ربـما من خـوفي، ولم تشـعرا بالحرج منـي. كنت عاجزة تماماً، وقفت هناك دون أن أفعل شـيئاً إزاء سـخريتهما بي، كنـت أشـبه بتمثـال في متحف، حتى ملامح وجهـي لم تتغير، ولم يظهر عليها الانزعاج.

معلمـة العـربي انحنـت تهمـس في أذن معلمـة الرياضيـات شـيئاً. كنـت أسـتطيع أن أخمن ما هو هذا الشيء؟ فقد بـدا في عينيّ معلمة الرياضيات الحذرتين شـعورُ الشفقةِ ذاك، وكأنها كانت على وشك البـكاء. مدتْ يدهـا إليّ، لكنها سـحبتها سريعاً، وكأنـما قد فكرت أن مثـل هـذه الحركة غير المدروسـة إنما هـي إسراف غير ضروري في مشـاعر الرأفـة، وقد ينتشر الخبر في المدرسـة، وتفقد هيبتها التي عملت طوال إحدى عشرة سـنة كي تحافـظ عليها، واكتفت بقولها عني: مسكينة.

لم أفكـر أن أتحـرك من مكاني، حينـما مدت يدها، وحينما سـحبتها. كنت أشـعر بأن الهواء يختفي من حولي، وأن تلك اللحظات كانت ثقيلة، أن كتفيّ كانا ثقيلين أيضاً، وأنني رغبت في انتزاعهما، لكنني لم أستطع، وقدماي كانتا مثل قطعتي خشب متصلبتين.

تذكـرت عندمـا صعدت الـدرج في أحـد الأيام، ذاهبـة إلى فصلي، أننـي التقيت بهذه المعلمة وكانت تنـزل من نفس الدرج، فتوقفتْ، وأشارت إليَّ بيدها لأهبط الدرج كي تتمكن هي من إكمال سيرها.

كانت نظراتها حذرة، ولم تنبس بكلمة، وكأنها كانت تشعر بالقرف مني. امتثلت لإشارتها، لأنني قد اعتدت على تنفيذ أوامر المعلمات بلغة الكلام أو بلغة الإشارة.

بدأتْ المعلمات يسألنني حول أمي، وكيف ماتت، وما إلى ذلك، وأجبتهن بكلمات مبعثرة، كان صوتي خافتاً، كأنما سيختفي تحت الأرض. لم أكن أعرف ماذا عليَّ أن أقول؟ وكيف أستطيع أن ألفّق المزيد من الأكاذيب لئلا يرتبن في أمري؟ انتهى كل شيء على ما يرام، وخرجت من عندهن بالمزيد من قطع الحلوى والشوكولاته.

في نهاية اليوم الدراسي، كنت عائدة إلى البيت عندما واجهتني فجأة واحدة من بنات جيراننا، كانت في نفس مدرستي، قالت لي: كيف تقولين إن أمك ماتت وهي كانت عندنا بالأمس؟

لم أقل شيئاً، ومضيت في طريقي.

كنت أمشي، وأراقب الناس والسيارات والرمل، وأعتقد بأن لا شيء يحدث من وراء ظهري، ومطمئنة لذلك. لم أفكر مطلقاً بما كان يحدث في حارتنا في تلك اللحظات. عبرت الشارعين المتعاكسين أمام الحي الذي أقطن فيه، كما أفعل في كل يوم.

كان الخبر الصغير المهول قد انتشر مثل النار في الحطب، ووزع شراراته على البيوت، تناقلته الألسن بسرعة كبيرة، وهي متحيرة، تصدّق أو لا تصدّق، وكنت أتابع طريقي غير منتبهة إلى كل هذا.

مـررتُ بجارتـين كانتـا تقفـان عند بـاب بيـت إحداهمـا، وأخذتا ترمقانني بنظرات فيها ازدراء، وكأنهما تقولان لي: كاذبة.
لقد دهشـتُ حقـاً، ولم يـتراءَ لي أن السـبب هو كذبتـي تلك. حين وصلتُ إلى البيت قامت أمي بضربي، ولم تشرح لي شيئاً.
في الصباح، ذهبتُ إلى المدرسة متأخرة أيضاً، فتلقتني المعلمة نفسها بالمساطر الخشبية والحديدية التي انهالت على راحة يدي من دون أن توضّح لي السبب، عدا أنها قالت لي بسخرية فيها الكثير من الغيظ: أمك ماتت .. هاه؟

***

أتناول كوب الشاي الذي وضعته على الطاولة الصغيرة التي عليها جهـازي الحاسـوب المحمـول، وبعض الكتـب للقـراءة. أتمعن في أفكاري، وأنا أرتشف الشاي، تركض تلك الأفكار، تطارد بعضها بعضـاً، المدرسـة تأخـذ عربـة في القطار، أمـي تأخذ عربـة أخرى، جـدتي، لكن أنـا لا آخذ أية عربة، أنا خارج أفـكاري، كأن ليس لي وجـود، كأن وجـودي غارق في الآخرين، في أمـور الحياة كلها، أنا عدم، أنا لست حتى ولا مجرد فكرة.
يميـل القارب بي، الجـزر التي أحلم في الوصول إليها ليسـت حتى مرئية، أنا وحيدة، أحياناً أملك رأساً كرأس الببغاء، وأحياناً أخرى

كرأس الأسد، وفي مرات أكون عنقاء قديمة جاهزة للنسيان.
سنون طويلة هي كلغز لا يدري إلى من يعطي الحل؟ خمسة وثلاثون عاماً مجرد أيام. أكبرُ في السن، تظهر بعض التجاعيد، لكني ما زلت أشعر بأني طفلة، متروكة، وغير مُقيدة.

***

قالـت لي أمي: لم أكن وجدتك متفاهمتين، لأنها كانت كأنها تميل إلى تحقير نفسها، كنتُ صغيرة آنذاك، لكني كنت أستطيع أن أعي معنى تلك الحماقة التي كانت عليها، حتى اكتشفتُ أني بت أكرهها، أكره ما هي عليه، وتراجعها الذي لا يقف أمامه شيء.
كل يوم تتراجع خطوات إلى الوراء عن حب نفسها، أكثر من اليوم الـذي قبلـه. كانـت تعتنـي بي، تسرّح شـعري الكث، لكنـي أعود فأنكشه مرة أخرى، وأهيل عليه التراب. وكنت أتعمد أن آكل عند ضرتيها كي أغيظها، ولكي تعلم أني لا أحبها، لتحتقر نفسـها أكثر مما تفعل.
كنـت أنتقم منهـا، أعاقبها لأنها رضيـت أن تُظلـم، أن يتم تجاهلها هكذا بسهولة، وكأنها زوجي نعال. كان يمكن أن تصرخ بالمرأتين، أن تتقاتل معهما. نعم كنت سـأحترمها، كان سـيكون لها هيبة، كان الجميع سيعمل لها حساب.

كانت تراقبني فحسب وأنا أتناول لقيمات الطعام من الإناء الذي تضعه أمامي زوجة أبي كما تضع فضلات الطعام لقطة أليفة. أنا مجرد حيوان في بيتها، أطارد ذيلي، وأتشمم رائحة الخيبة في الهواء، وهي تضحك عليّ، على هذا الحيوان الصغير الذي يتعلم الطاعة.
كانت جدتك تلاحقني بنظراتها، كأنها تذكرني أنها لم تزل أمي، وأني أينما ذهبت، وإلى من لجئت فسأظل ابنتها، لن أتخلص من ذلك، ستظل أمي مهما حكيتُ، ومهما كان سردي في صالحها أو ضدها.
أعاتب كل ذلك الزمن، ذلك التاريخ الذي لم يرحم، أعاتب الأجساد التي تحللت في التراب، والتي نامت نومتها الأخيرة بعد أن تركت فينا ظلامها، لنبحث نحن عن شعلة ننيره بها.

***

إنه الفستان الأزرق الذي أحب ارتداءه، كأنما أبحر في زورق على سطح بحر ساكن، وأنظر إلى القمر في الغروب، والنجوم الأولى التي تظهر صافية، قلبي لا يعتريه أي ألم، فراغ فقط افتقدته طوال حياتي الماضية.
ما زلت أشعر بالصخور تتدحرج من أعلى إلى أسفل في صدري، ثقل رهيب في أعماقي، كأنه بئر رُدِم بالحجارة. لا أعرف سبباً لكل هذا إلا أني لم أشعر بالارتياح في أي يوم مضى. لقد لازمني الضيق

منـذ الصغر، منذ أن كنت في حضن تلك المرأة الغبية، المهانة. كيف أستطيع أن أتخلص من كل ذلك؟ لا أستطيع، بسهولة، لا أستطيع، يبدو صعباً، عملا مرهقاً القيام به.

أعشـاب ضـارة عـلى حـواف حديقتـي المزروعـة تـواً بالأزهـار، والشـجيرات الصغـيرة، بـدت تلك الأعشـاب وكأنهـا تحتل قلب المكان، بينما الأزهار والشجيرات تدنو إلى الأطراف.

كل ذلك الزمن لم يفعل شـيئاً من أجل أن أنسـى، أو أسـامح، مثل المنجـل يحصد الفرح بمجرد أن أنتهي من الشـعور به، ليلقيه بعيداً كي لا أراه، وأحب أن يتكرر في حياتي.

إنني الآن على أهبة الاستعداد للمغادرة، يا له من فستان جميل، وهذه الـوردة المثبّتـة في الجيب العلوي تزيده جمالا. قوامي رشـيق جداً، ما زلـت أحتفظ بشـبابي رغـم السـتين عامـاً، الكعب العالي سـيزيدني طـولا، لا داعـي لـه، كل النسـاء في الاجتـماع الأسـبوعي كرويات الحجم، سـأكون أنا مثل برج إيفل بالنسـبة لهن، وسـيتضاحكن عليّ من خلف ظهري، ستصلني السهام الصغيرة، سهام النميمة المقدسة لديهن، يعشـقنها عشـقاً لا فكاك منـه ولو في أعمق مشـاعر التدين، يقلن الغيبة والنميمة حرام، وهن يفعلن ذلك.

أحيانـاً أظـن أنهـن مُرغمات عـلى تقطيع لحـوم الموتى هكـذا، ليس بيدهن حيلة.

إنهـن خمـس نسـاء، يقاربننـي في العمر، ثـلاث ربات بيـوت مثلي، واحدة إدارية متقاعدة، والأخرى معلمة محو أمية.
أقـضي معهن الوقت الذي لا أعرف كيـف أقضيه، وأنا لا أطيق أن أكـون بمفردي ولو يوماً واحداً، لأنني سـأجد الماضي يقف أمامي بـكل خشـونته ليبـدأ في ضربي، وتعنيفـي، وتحطيـم إرادتي القوية. سيذكرني بأنني لم أكن سوى ابنة لامرأة عاشت عمرها كله مهضومة الحق، وخادمة لدى أسيادها، ولا شيء آخر.
إنها تسـتعد للخروج، أعرف ذلك عندما تغلق عليها باب غرفتها، وكأنهـا تقول لي لا تقاطعينـي يا ابنتي، عليّ أن أعيـش حياتي، أنا لي أيضـاً حياة كـما تعلمين، أم يجـب أن ألغي العـالم الخارجي كله من أجل هذا القبو المعتم؟!
إنها تعادني فيما تصادقني. علاقة غريبة لا أفهمها. هل هي معي أم ضـدي؟ أقتربُ من الباب، صـوت كعب حذائها يضرب الأرضية الرخامية، فتحتْ باب الدولاب، أسمع صوت أكياس البلاستيك التـي تحفظ فيهـا ثيابها الجديـدة، لابد أنها تبحث عـن حقيبة يدها، صوت الكرسي يتحرك.
إنها تجلس، تمشـط شعرها، تقترب من الباب. أبتعدُ بسرعة راكضة على حـواف أصابع قدمي في الممر الطويل، إنه لا ينتهي، أطول من المعتاد.

لم ترني، ما زالت في الداخل، لابد أنها تغلق الأنوار، ومكيف الهواء. أسمع صوت الباب يُفتح ثم يُغلق، رائحة العطر تفوح في المكان، ثم صوت باب المدخل يُفتح ويُغلق.

إنها حتى لم تسأل عني، لم تر إذا كنت بحاجة إلى شيء، قد أكون مريضة، متعبة، كارهة لحياتي، شاعرة بالاشمئزاز، لا يهم، كل ذلك لا يهم. سأعدّ لي كوباً من الشاي، وأحتفل بوحدتي على طريقتي الخاصة، منفضة أتخلص فيها من أعقاب مشاعر كريهة، لا يقوى أحد على احتمالها.

المطبخ كبير جداً علينا نحن الثلاثة، خشب الدواليب التي من الكرز كانت ماهرة فيما مضى في إدهاشنا بتألقها، لكنها هرمت المسكينة الآن، والنافذة تضمر الشر بالتأكيد، وهي حذقة كي تفهم ما بداخلي، رغم أنني أنا نفسي لا أفهمه. أليس هذا مضحكاً؟

حشرة تظهر فجأة من خلف الثلاجة، لا أميّز نوعها، لكنها حشرة تشاركنا البيت، تشبه النملة لكنها ليست نملة، كأن لها ذيلاً في الخلف. تسير بسرعة، ماضية إلى شؤونها الخاصة، هاربة مني، تخشى أن أسحقها بقدمي. لن أفعل ذلك بالتأكيد، ليس وهي بعيدة عني هكذا، لو كانت قريبة ربما فعلت، لن يتطلب الأمر مني سوى رفع قدمي ثم إنزالها على جسدها الذي بالكاد يُرى، لكنها وهي بعيدة هكذا سيكون بإمكانها أن تهرب، الفرصة أمامها مواتية، بُعد

المسافة سيكون لصالحها. أنا لا أنوي أن أدخل في مبارزة معها، لتذهب في سبيلها، لها حياتها هي أيضاً، كلٌّ له حياته على هذا الكوكب، ولندع الآخرين وشأنهم.

صُنْع الشاي متعة لا يضاهيها شيء سوى شربه. أضع كوب الشاي على الطاولة، شاي وكمبيوتر، يا للبهجة العظمى، يا للحرية التي بلا حد، سائحة في رحاب الله الواسعة، أفعل ما بوسعي.

إنه المساء، الساعة السابعة، الغروب الخفيف، غوغل حبيبي، فيك كل ما أرغب، تلبي كل طلباتي، مهما كانت صغيرة أو تافهة. غوغل الجميل، الممتع. غوغل كل شيء في هذا العالم الطائش العقل. أين كنتَ من زمان؟ من قبل عشرين سنة مضت، حين كان الملل ينخر فينا مثلما ينخر الدود في الخشب، ونبحث عما يشغل أوقاتنا فلا نجد.

إحدى صديقاتي قالت لي إنها قبل مجيء الانترنت كانت تقف أمام المرآة في غرفتها ساعات طويلة تنظر إلى نفسها. قلت لها: إنها الكآبة يا صديقتي!

جاء والدي من الدكان، لن يجد أمي ولن يقول شيئاً، لكنه سيلوي شفتيه بامتعاض وسأعرف قصده. لن يكرهها مع ذلك، إنه لا يتمكن من فهمها، ستظل الأمور بينهما عالقة بهذه الطريقة، كل واحد منهما في وادٍ.

قلتُ له: أهلا أبي. وقبلت رأسه. الغترة المتشبعة برائحة البهارات والتوابل التي يبيعها في محله، الكركم، الفلفل، اللومي الأسود، الحلبة.

يدعو لي: بارك الله بك يا ابنتي.

أغتبط كثيراً لحنانه الفائض عليّ، ورعايته التي لا تنتهي. أظن أنه حتى بعد أن يموت سيظل يرعاني، ويعتني بي، سيزورني في أحلامي، سيكون في خيالي، أتذكره وأطمئن.

ذهب إلى غرفته ليغير ثيابه قبل أن تأتي أمي، وتطلب منه ذلك، لا تحتمل تلك الرائحة، أصبحتْ تحتقر عمله، وتتفاخر أمامه بأن جدها كان تاجر أقمشة، لم تكن مزرعة التمور التي كانت لأبيها موضع ترحاب منها، بل كأنما كانت أكياساً من الخيش تمتلئ بأخشاب النخيل، وجذوعها.

هذا الظلم يتكاثر في داخلها بلا داعٍ، لكن مَن لديه الشجاعة ليصارحها بذلك؟

كلنا نسير في طرقنا المتفرعة في وقت واحد، نؤثر في بعضنا، سلباً أو إيجاباً، لا نقيم الأمور، ندعها هكذا على البركة.

تساءلتُ هل أعود لأغزو الانترنت، أم أشرف على العشاء الذي ستعده الخادمة؟ شرائح من البطاطس المقلية، وكباب مصنوع من الخبز المنقوع بالماء، مضافاً إليه قطع صغيرة من الطماطم، والبصل،

والثـوم، وكرفس مُقطّع بالسـكين، ومجموعة من البهارات الناعمة تُعجن جميعها باليد حتى تصبح كتلة واحدة، ثم يؤخذ منها بأطراف الأصابع، وتُسـوّى باليد على شكل دائرة متوسطة السُمك، ثم تُقلى بالزيت الحار. يساند هذا العشاء قطع من الجبن الأبيض مع زيتون أسود، وكوب من اللبن لكل واحد منا.

كانت أمي عادةً تقترب من العشاء الموضوع على الطاولة في المطبخ، تنظـر إلى ما تحتويه الصحون، وعندما ترى المقالي يتغير لون وجهها فأعرف أنها ستأكل معنا مُرغمة.

بينـما كان هـذا النوع مـن الطعام هـو المُفضّل لدى أبي منـذ أن كان في بيـت عائلته قبل أن يتزوج، كان يـوصي العاملة المنزلية أن تجعل البطاطـس مقليـة مثـل رقائق التشـيبس، والكبـاب بالكرفس لأنه يعطيه نكهـة لذيذة، بينما أمي تفضّل صينيـة المعكرونة، أو الدجاج بالفرن.

نجلس جميعاً حول الطاولة، يبدو أبي وكأنه مُقتطَع من العالم، يتناول عشاءه كما لو كان لن يحظى بمثل هذا الطعام مجدداً، وقد نسينا تماماً أنا وأمي، فلم يجر معنا حديثاً.

أمـي تتناول البطاطـس ببطء، كما لو كانت تشـعر بالتقزز، وتقضم القليل منها في كل مرة، تسـتغرق في شريحة البطاطس الواحدة عدة دقائـق، وتقترب منحنية بجسـمها حينـاً على الطاولـة، وحيناً آخر

تجلس مستقيمة، وذراع اليد التي لا تأكل بها تطويها على صدرها، ونظرة استياء تقفر عبر عينيها. إنها تَجهد لاحتماله، أظنها تفكر بأن حياتها كانت ستكون مختلفة لو لم تتزوج منه، بالكاد يعرف ماذا يريد؟ لا يملك من الطموحات ما يجعله أفضل حالا مما هو عليه الآن، لا يقاتل وسط هذه الغابة المتوحشة، لقد حصل على طريقه، وسار فيه حتى وصل إلى النهاية، أصبح الآن بمقدوره أن يسترخي فحسب في مقعد الشيخوخة منتظراً رحلته الأخيرة التي لا عودة منها. لقد انتهى الأمر بالنسبة إليه، وما عاد في خط البداية، كما كان وهو شاب، مُنتظَراً منه أن يكون في المراتب الأولى المتقدمة في سباق الفوز والنجاح.

أظنها كانت تحلم بالزواج من طيّار، يرتدي بدلة الطيران الأنيقة، ويضع على رأسه تلك القبعة التي تجعله وسيماً، وإن كان عادي الشكل. أعتقد بأنها لم تكن في نهاية المطاف امرأة عادية، لكن لم يتّضح هذا لأحد مطلقاً، لأن أحداً لم يكترث. نهضتْ باستقامة، تفرد ظهرها بقدر استطاعتها ليلاحظ أبي طول قامتها وليغتم، كانت تتقصد أن تجعله في موضع المقارنة معها، في داخلها كانت تقول « أنت لا تستحقني»

نظر أبي إليها نظرة جانبية، ما كان ليفوّت تلك اللحظة، كان ذلك التصرف منها قد جعله في موضع اختبار، في أي وقت، وأي مكان،

طالما كان معها، أن ينظر، ويقدّر الطول، وأن يتذمر في ذهنه فقط، فهو في السنوات الأخيرة لم يعد يعلّق كثيراً على تصرفاتها التي يقول عنها حين يكون الوضع قد أثار استياءه حقاً إنها تصرفات غير عادية، مُلمِّحاً إلى صفة الجنون فيها، لكنه أبداً لم يكن ليجرؤ على التصريح بذلك، حتى في أشد لحظاته غضباً.

تجهمَ وهو يخفي آخر قطعة كباب في فمه، شرب اللبن، ثم قام من مقعده، غسل يديه في مغسلة المطبخ حتى لا يزاحم أمي على مغسلة الحمّام التي كانت تغسل يديها فيها. ثم أصبحتُ وحدي.

كانت تلك أشبه بالمُبارزة بدون أسلحة، بل فقط بالجلوس على كرسيين ثابتين، وتناول الطعام بهدوء مثالي يمكن أن يحسدنا عليه الكثيرون ممن تضج بيوتهم بالأصوات العالية بحيث لا يعرفون أن يتناولوا طعامهم بهدوء. وكنتُ أتتبع الأجواء النفسية بينهما لأنني قد أصبحت مُعتادة على ذلك، ورأيي في الموضوع لن يقدّم أو يؤخّر. وقد حاولتُ مرات عديدة أن أقول شيئاً بهذا الخصوص لأمي، لكنها قاطعتني يقولها: لا تتدخلي فيما لا يعنيك.

أقول لكم ذلك حتى لا تتهمونني بالسلبية وعدم الاكتراث. لهذا فأنا مجرد متفرجة، متابِعة إن تحرينا الدقة.

***

يـا لهُ من صباح، عسـل يذوب في ماء الشـمس. يأخـذني الفرح إلى الغيمة المسـترخية بكسـل في السـماء، فـرح مفاجـئ، يظهر حين لا أتوقعه، لن أنتظر من أحد أن يفهم ذلك، إنه يختبئ فحسب، وحين يكـون الوقت مناسـباً له ينطّ مـن مكانه، ويمد ذراعيـه في ذراعيّ، وجسده في جسـدي، ويتلألأ في عيني، ويقفز بقدمي، جاعلا إياي فتاة أخرى لدقائق معدودة، أعيد تأملها، وكأنها كانت أعجوبة من الصعب تكرارها ثانية.

صبـاح الرابـع عـشر مـن شـهر يوليـو، في عـام 2005 م. لا تعني السـنون شـيئاً في الحقيقـة، إنهـا مجرد أيـام. حكت لي أمي عن سـنة الغرقـة أو الهدامـة كما يسـمّيها البعض من النـاس، التي حدثت في بريدة عام 1957م.

كان بيـت جـدي مبنيـاً من الطين، وقد تسـاقطتْ أجـزاء منه بفعل الأمطـار الغزيـرة التي اسـتمر هطولها أربعين يومـاً. تهدمتْ بيوت كثيرة، وسـقف الحظيرة في بيت جدي سقط على الخراف والدجاج فقتل بعضها.

العاصفـة الهائجة التي هبّت على المدينة جعلـت البقرة المربوطة إلى عمود خشبي صغير، مغروس في الأرض، يجنّ جنونها، فتقفز فوق العمـود، ويشـق بطنهـا. تعلقت عليـه مثل لوحـة الإعلانات التي نراها في الشوارع.

عندما رآها جدي على هذه الحال سقط على الأرض مغشياً عليه. كانت جدتي وقتها تجلس مع النساء، عندما علمتْ بما حدث نهضت من مكانها بخفّة غزالة، وجرت نحو الحظيرة. لم تشعر بثقل قدميها، وهي تجتاز المسافة من الحجرة الداخلية إلى حيث يرقد زوجها مُمدّداً على ظهره في الوحل. خاضت بقدميها المُصابتين بالروماتيزم في بحر من الطين، واخترقتْ العاصفة السوداء، مُجرِّدة إياها من سطوتها، لتتحول إلى مجرد رياح عادية، في نهار جميل، وصلتْ فيه أشعة الشمس إلى الأرض دون عقبات من السحب.

لم تعبأ بالرجلين الغريبين الذين وقفا في ذهول يتفرجان على ما يجري، جاهلين بما يجب عليهما فعله، واصلتْ ركضها مع معرفتها بوجودهما، تبعتها ضرتاها لأن الموقف كان مهولا، ولأنهما لم تشاءا أن يُقال فيما بعد، عندما تهدأ الأمور، إن جدتي وهي المرأة الضعيفة التي لم يحبها جدي كما يجب قد تحلّت بالقوة فجأة عندما وجدته يتعرّض للخطر، وأن حبها كان أقوى من حبهما له.

شاهدت جدتي البقرة التي كانت في وضع يُرثى له، وزوجها على بعد مسافة قريبة منها فاقداً للوعي، فانتابها شعور بالفجيعة، نعم، كان شعوراً عظيماً لا يمكن وصفه، هزها من رأسها إلى أخمص قدميها، لم تستطع بأي شكل من الأشكال مقاومته، فارتفع صوتها فيما يشبه النحيب قائلة: مات الرجل، وماتت البقرة، مات الرجل،

وماتت البقرة.

من حسن حظ جدي والبقرة أنهما بقيا على قيد الحياة، تمّت مداواة البقرة، واستفاق جدي من إغماءته.

كانت عائلة أبو مسفر وأبو ساهر وهم جيران جدي، يجلسون في العراء تحت المطر، مع عدد كبير من الأُسر التي فقدت منازلها، يأملون في قدوم الفرج، وانقشاع الغمّة في أقرب وقت ممكن، مع أن لا شيء مما كان يحدث يمنحهم مثل ذلك الشعور، عندما وقعت فجأة عينا أبي مسفر وأبي ساهر ـ وهما الرجلان اللذان ركضت أمامهما جدتي غير عابئة بهما ـ على جدران بيت جدي التي لم تزل صامدة، وقد أرجعا ذلك إلى مداومة جدي على إخراج الزكاة في موعدها، وإعطاءه الصدقات للمحتاجين. قرّر الاثنان بعد تردد طفيف لا يُعتبر، أن يطرقا باب البيت.

كان جدي قد وضع ذيل ثوبه في الجهة اليمنى من حزامه الأسود الذي أحاط بخصره، والجهة اليسرى ارتخت على بطنه بسبب حركة جدي الكثيرة، كتل الطين غطّت حذاءيه، وكأنه قد مرّغهما فيها عدة مرات، شمّر عن ذراعيه، ما يعني أنه كان في شغل شاغل حين قرر الرجلان أنهما في حاجة إلى المساعدة.

وقف الرجل المسن أمامهما بتلك الهيئة التي سبق ذكرها، وأطل من خلفه ولداه من زوجته الثانية، الكبير عمره سبع سنوات، والصغير

ست سنوات، وولده من زوجته الثالثة، وعمره خمس سنوات، يريدون معرفة من الطارق؟ وليكونوا في عون أبيهم عندما يحتاج إلى ذلك. لن أتحدّث الآن عن طريقة جدي في تربية أبنائه، لأنه ليس الوقت المناسب لذلك كما تعلمون.

في خضم ما كان جدي يواجه طقساً رهيباً، لم ترَ المدينة مثله منذ أزمان بعيدة. دار بينه وبين الرجلين حوارٌ قصير، وهو الشيء الذي لم يكن الرجلان يتوقعانه على الإطلاق، وقد حمدا الله على ذلك، لأنهما لم يكونا يعرفان كيف سيطلبان منه الموافقة على بقائهما مع عائلتيهما في منزله حتى يتوقف المطر دون أن يهينا كرامتهما، ويريقا ماء وجهيهما.

أدرك جدي حرج الموقف فسارع إلى الترحيب بهم دون كلام كثير. ولأن الجارين أحسّا بأن مكوثهما عنده سيشكّل له ولعائلته عبئاً كبيراً، فقد قالا له بما يشبه الاعتذار إنهما سيعودان إلى منزليهما حالما يتوقف المطر.

هذا يعني بعد ثلاثة أسابيع، في حال حافظ منزل جدي على متانته حتى ذلك الوقت.

كانت الظروف لا تُحتمل، ولكي يقوم أفراد عائلة جدي بواجباتهم اليومية المعتادة في مثل تلك الأجواء الكارثية كان يتوجب عليهم بذل جهود مُضاعفة، فما بالك وفي البيت ضيوف عليهم أن يقوموا

بواجب الضيافة تجاههم؟!

للأمانة أقول حافظ جدي قدر استطاعته على كرم الضيافة، فشعلة الموقد كانت تظل مشتعلة طوال النهار والليل، والقهوة على الدوام جاهزة، والنساء بما فيهن زوجتا الجارين يخبزن أقراص العجين في التنور المقام في أقصى الفناء الخلفي بالرغم من الأجواء المكفهرة، التي كانت الطقس الرديء من ناحية، والضغط النفسي الهائل الذي يرزح تحته الجميع من ناحية أخرى، ويعددن كرات العجين في المطبخ أولا، ثم يحملنها في صواني إلى التنور على أضواء الفوانيس التي تتدلى من أيدي الأولاد والبنات الصغار.

لقد توحّدت مشاعر التذمر لدى الزوجات الثلاث ضد ما لاقين من مشقة، ذلك التذمر الذي رغم كل شيء ظل في الخفاء، بعيداً عن أسماع الجارتين. تنقلت الزوجات الثلاث بين غرفهن، وكأنهن قد أصبحن صديقات حميمات، جاعلات تلك الغرف مقراً أميناً لفضفضتهن، ولإطلاق العنان لغضبهن المكبوت، الذي كان يرفض جدي الإصغاء إليه، وهو على أية حال لم يكن يتجاوز الأبواب، حرصاً على أصول الضيافة.

قلن إن العمل شاق، وبرغم الظروف السيئة إلا أن الطعام ينبغي أن يكون جاهزاً للضيوف في الوقت المحدد، ثلاث وجبات في اليوم، لا تنقص واحدة.

إضافة إلى أن زوجة جدي الثالثة وهي أصغرهن سناً، وكثيرة الدلال على جدي بسبب ذلك، لم تكن تطيق زوجة أبي ساهر، وتشعر بعدم الراحـة وهي معها في مـكان واحد، لأنها تظن بأن عينها حسـودة، وهي أي الزوجة الثالثة تخشـى على نفسها وأبنائها من حسدها، ثم اتفقن جميعاً على أنهن لا يستطعن التصرف وكأن الأمور تجري على أفضل ما يرام، وهو المراد منهن فعله، ويجدن صعوبة في تحقيقه.

لقـد توجهن بهذا الكلام إلى جدي في مرات متفرقة عندما كان يأتي للاطمئنان عليهن، وقلن أيضاً: إنك لا ترى كم نفني أنفسنا في هذا المنـزل، ومـع ذلك تجلب لنا متاعب نحن في غنـى عنها، هل نعتني بأنفسـنا أم بضيوفك؟! فيردّ عليهن قائلا إنه وجد نفسـه مُرغماً على اسـتقبال هؤلاء الناس، ولم يكن ضميره ليسـمح لـه أن يتركهم في العراء في هذه الظروف القاسية. وهنا كان الحوار يتوقف.

***

كان الجميـع في بيـت جـدي يعمـل، لم تكن تمضي عـشر دقائق على أحدهـم دون شيء يفعلـه، وإلا فقد صوابه. لكنهـم لم يتمكنوا من دفـع الخـوف عن قلوبهم، حتى أنه تهيأ لهم بأن هذا المطر لن يتوقف على الإطلاق عن الانهمار.

كانت أقدام النسـاء والرجال تهبـط في الأرض الموحلة عندما كانوا

يهرعـون للقيام بهذا العمـل أو ذاك، ومياه الأمطار تتجمع في الحفر التي كوّنتها أقدامهم. كانت أرضية الغرف والممرات تتسخ بالطين الذي تحمله أحذيتهم إلى الداخل، فتقوم النسـوة بغسلها، وتنظيف السجّاد بالماء والصابون.

أبقاهـم العمـل منشـغلين عـن التفكير والقلق بشـأن مـا يحدث في الخـارج، والخطر الذي يتهددهـم في الداخل، متجنبـين التفكير ما أمكنهم ذلك في سقوط السقف الذي يجلسون تحته فوق رؤوسهم، أو الجدار إذا ما مروا من أمامه.

حين غاب جدي عن الوعي أسرعت إليه زوجاته، وأولاده الثلاثة، اللذين حاولوا المساعدة بقدر ما تمكّنهم سنوات أعمارهم الصغيرة. كان ثمـة ولد رابع للزوجـة الثالثة، لكن عمره كان لم يزل سـنتين، ويتشـبث بذيل ثوب أمه، ولم يكن يفقه شـيئاً مما يحدث، كان يبكي فقط وهو يرى أمه قلقة، ولا توليه اهتماماً.

قامـت جدتي وزوجتـه الثانية بنقل جدي عـلى كتفيهما إلى الداخل، وسار البقية بالقرب منهم في غمّ وحزن.

عندما اختفى الجميع في الداخل، سـارع أبو مسـفر وأبو سـاهر إلى البقـرة في محاولـة منهما لإنقاذها. كان أبو مسـفر قد تجاوز الأربعين مـن عمره، جسـمه هزيـل، لكنـه نشـيط، كأن كل ثانية مـن عمره يقضيهـا في العمـل. أما أبو سـاهر فقد كان في الثانيـة والثلاثين من

عمـره، يعـرج بقدمـه اليسرى أثر سـقوطه عن النخلة الشـاهقة في مزرعته عندمـا كان يقوم بقطع عذوق الرطب، قبل صيفين مضيا، ليبيعه على العابرين.

قام هذان الرجلان اللذان لم يطرأ على بالهما في أي لحظة من لحظات حياتهما الماضية، ولا حتى في أحلام يقظتهما، أنهما في يوم ما سيقفان في هـذا المـكان، ينقذان بقرة مـن موت محتم، قامـا بتخليص البقرة بمشـقة كبـيرة، ثم ذهبـا بها إلى العـمّ أبي شـارد معالـج الحيوانات بالطب الشعبي كي يخيط لها الجرح.

لقـد أدركا بأن التحرك وسـط هـذه الأمطار والعواصف سـيكون ضرباً من الجنون، كما أنهما لم يكونا واثقين من أنهما سيجدان الطبيب في منزله، وقد يكون المنزل نفسـه قد تداعى بفعل السـيول الجارفة، لكنهـما برغـم ذلـك وضعـا البقـرة النازفـة في عربة يجرهـا حصان أسـود عجوز كان لسـيف الحمّالي، الذي يعمل في نقـل البضائع إلى الأسواق.

قـال له أبو مسـفر: نحن بحاجـة إلى الحصان والعربـة، إنها ظروف طارئة.

أشـار سـيف الحـمالي بأصبعـه العريض الأسـمر، وقد برقـت عينه اليمنـى الصحيحـة، فيما عينه الأخرى يغشـاها البيـاض، إلى مكان الحصان والعربة، ثم ابتعد بمهارة مختفياً في حجرته.

كانت الظلمة كثيفة، والسماء ترعد وتبرق، بذل الحصان العجوز قصارى جهده وهو يجر العربة الثقيلة، ويجتاز الدروب الصعبة، لم يضربه أبو مسفر بالسوط ليحثه على الإسراع، كأنما كان يثق به! جلس أبو ساهر صامتاً إلى جواره. إنهما لا يعرفان بعضهما معرفة وثيقة، يلتقيان أحياناً في الطريق، فيلقي كل منهما التحية على الآخر، ثم يفترقان.

نقل أبو ساهر نظره إلى البقرة الجاثمة في الخلف تحت غطاء من البلاستيك، لكنه لم ير إلا ظلالا بسبب الظلمة، حتى القمر قد حجبته السحب. كان يسمع صوت قطرات المطر تتساقط على غطاء المشمع. لم يكن يتذمر بسبب الظروف، كانت هذه طبيعة شخصيته، يطيل الصمت كمتأمل روحاني، بينما الأجواء من حوله وكأنها تنذر بانتهاء العالم، واختفاء هذا الكوكب الجميل.

لقد تطلّب منه هذا الهدوء الداخلي تدريبات طويلة الأمد، قام بها وهو جالس أو مستلقٍ تحت نخلاته الباسقة، الضاربة في القدم، في وقت الضحى من كل يوم، وقبيل غروب الشمس، وكذلك عندما كان يعتني بها ويرعاها ويدللها.

كان يفعل ذلك في حالة من الأمان التام، فحتى عندما تهدمت جدران منزله تحت وابل الأمطار لم يجزع بتاتاً، ارتعشت شفتاه الغليظتان، وشعر بحكة في أنفه، لأنه تفاجأ فحسب بشلال المياه

القادم من السماء، وتحركت قدمه السليمة والأخرى العرجاء في أنحاء البيت، حركة أوتوماتيكية، كأنهما قدما شخص آخر.
لقد كان يعرف تماماً ما يفعله، وكأنه قد بصر بما سيحدث، فقام بما يتوجب عليه فعله، أنقذ حياة زوجته وولديه قبل انهيار الجدران بدقائق قليلة، قاده إلى ذلك الحدس الذي وكأنما كان ينبئه بوقوع الشيء قبل حدوثه.
قالت له زوجته: مصاغي وثيابي. وولداه قالا له: ألعابنا ودرّاجتانا. فقال لهم بشهامة كانت مثار دهشة الجميع، حتى هو: أنا سأحضرها لكم. أخرجوا الآن بسرعة.
كان لديه شبه يقين بأنه سيعود إلى بيته حالما يتوقف المطر، وسيقيم الجدران من جديد، وكل شيء سيعود إلى سابق عهده، والنخل هناك في الحفظ والصون، سالماً، مُباركاً، وأن كل هذا بالنسبة إليه هو سحابة صيف زائلة. نعم، هذا ما كان يفكر به في تلك اللحظات الحرجة من التاريخ. وكان، وهو في العربة، يلتفت أحياناً إلى جهة اليمين وإلى جهة اليسار، ثم يبقي رأسه ثابتاً إلى الأمام، ونظره موغلا في الظلام، وغطاء رأسه الأبيض وثيابه جميعها مبللة بالمطر.
كان أبو مسفر ينظر إلى الحصان الأسود مزهواً بنفسه، غير مصدّق أنه يقود الآن جواداً، كان ذلك حلمه منذ أن كان صغيراً، لكنه لم يتمكن من اقتناء واحد طوال حياته، لأن أباه كان لا يحب الأحصنة،

واعتاد أن يقول إن بثمن الحصان يمكنه أن يشتري طعاماً لشهرين كاملين. كانوا يعيشون في البيت حياة صارمة، خالية من الهوايات، وهـو كان يعمـل طوال الوقـت ليجلب المـال إلى أبيـه، الذي كان يلهب ظهره بالعصا إذا لم يفعل ذلك.

كان الضرب مسألة عادية في الأسرة، مثل الأكل والنوم، فكلهم قد ضُربوا، حتى أبوه كان جده يضربه عندما كان صغيراً بسوط يحتفظ بـه معلقاً على الجدار أمام أنظـار الجميع، ثم توقف عن ذلك عندما أصبح رجلا.

كان أبو مسـفر يشـفق على الحصان، ويتساءل ما ذنبه إذ نخرجه من حظيرتـه الدافئـة ليغامر معنـا في مثل هـذه الأجـواء العاصفة؟ إنه جواد نشـط رغم كبر سـنه. وهكـذا كان الحصان يُترك ليسـير على مهلـه، ويخوض بحوافره حتى الركب في ركام الطين، والمطر يهطل عليـه مثل مطـارق مدببة، بينـما الراكبـان يتمايلان يميناً ويسـاراً في هدوء بفعل اهتزاز العربة.

بعد عشرين دقيقة وصلا إلى بيت أبي شـارد، وكان عليهما أن يقصّا عـلى جـدي، فيما بعد، الدهشـة العظيمة التي ارتسـمت على وجهه عندما رأى البقرة على تلك الحال.

***

صباح الجمعة، اعتدتُ أن أستيقظ من النوم عند الساعة السادسة صباحاً للذهاب إلى العمل، ولم يجعلني يوم الإجازة أغيّر من عادتي هذه.

تستيقظ أمي في الساعة السابعة والنصف صباحاً، وتترك أبي ينام ساعة أخرى بعد استيقاظها، إلى أن يتم تجهيز الفطور.

في هذه الإثناء يتقلب أبي في الفراش العريض الذي أصبح كله له وهو يشعر بالحرية. أول شيء تفعله أمي بعد استيقاظها هو أن تفتح باب غرفتي، وتطل برأسها الذي تهزه مثل الأطفال، وعندما تجدني جالسة كالمعتاد أقرأ في كتاب ترقص عيناها فرحاً، وتنفرج شفتاها عن ابتسامة راضية، وكأنها قد عثرت عليّ بعد غياب طويل، ثم تغلق الباب بدون أدنى كلمة، تذهب إلى الحمام، ثم إلى غرفتها، تصلّي الصبح، ثم تتجه إلى المطبخ، وتساعد العاملة المنزلية في إعداد الفطور: حليب، شاي ، جبن أبيض سائل، مربى بالمشمش، زيتون أسود.

من الواضح أنني عندما أستيقظ من النوم أقضي وقتي في القراءة، هل أسبقهما إلى تناول الفطور؟ لا، هذا لا يحدث بتاتاً، ممنوع على أيّ منا أن يتناول فطوره وحده. يجب على الجميع أن يأكلوا سوياً، أكانوا راغبين في ذلك أم لا، فرغبتهم ليست

مهمـة، ما هو مهم حقاً هو بقاؤهـم معاً، عائلة واحدة، يجمعهم الحب والاهتمام.

في أحـد الأيـام تناولـتُ فطـوري وحـدي، شربـت الحليـب بالشاي، وأكلت خبزاً مدهوناً بالجبن السائل مع المربى. فعلت ذلـك بسرعـة، وكأنني أخشـى أن يقع أحدهم عـليّ وأنا أفعل شيئاً خاطئاً.

عندمـا شـاهدت أمي كـوب الحليب عـلى الطاولة قد تمّ اسـتعماله لم تحدثنـي طوال أسـبوعين كاملين، كنتُ خلالهـما كأنني منفية عن الوجـود، لم تكـن تـراني في المـكان حيـث كنـا نجلس لنتفـرج على التلفزيون، أو نشرب شاي العصر.

شـعرتُ بأنني منبوذة من البيت بأكمله، بـل من العالم كله. كرهتُ نفسي كثيراً، وكان الشـعور بالذنب كأنه سـوط يجلدني، وحتى بعد أن لم أعـد إلى فعـل ذلك مرة أخرى اسـتمرتْ لا تنظـر نحوي، فما بالك بالحديث معي!

كان ذلـك أقصى عقـاب تلقّيتُه منها لأنني رغبت في الاسـتقلالية. لم تكن بحاجة سوى أن تتجاهلني لكي أشعر بأني ميتة.

أدنى فكرة عن تغيير العادات المتبعة في المنزل لم يكن يحظى بالقبول، يجـب أن يظـل كل شيء على حالـه، لتبقى الأمور على مـا يرام مهما

كانـت أعماقنا تعجّ بالحمم البركانية، فكل المشـاكل سـوف يُعثر لها على حل، ولا بأس من الشـعور بالشـتات أحيانـاً، طالما أن الظاهر يحافظ على ثباته.

***

كان الجميـع قد اعتاد أحياناً على الذهاب إلى مزرعة جدي، الثلاث زوجـات والأبنـاء، يتناولـون غداءهم، ويمرحون بين الأشـجار، ويسبحون في البركة الممتلئة بالماء.

في المـرة الأخيرة التـي ذهبتْ فيها العائلة إلى هنـاك، كان الجميع في الداخـل بعـد وجبة الغداء، ما عدا جدتي وابـن ضرّتها الثالثة الذي كان يبلغ من العمر أربع سنوات.

أصرّ الطفـل عـلى جدتي أن ترفعه ليقف على جـدار البركة، وكانت ترفض خوفاً عليه من السـقوط والغرق في الماء، لكنه كان يزداد في البـكاء، ويرفع يديه إليها ويلحّ عليهـا لتضعه على الجدار، وليكون باستطاعته أن يلمس الماء ويلعب.

بعـد أن نفد صبرهـا من بكائـه، وتمرغه في الأرض غـير المزروعة، حملتـه مـن تحـت إبطيه، وجعلتـه يقف عـلى حافة البركـة التي كان صوت الماء المتدفق فيها يصدر ضجيجاً عالياً.

كان الطفل مسروراً جداً، لا يصدّق فسحة اللعب التي أُتيحت له.

ثنى ركبتيه، ومال بجسده الصغير على الماء، وقبل أن تنتبه جدتي إلى ما يحصل، كان الطفل قد سقط في البركة، ولم يفهم أنه كان يغرق، لكنه بغريزة حب البقاء التي نملكها جميعاً أدرك أنه يتعرض إلى الخطر، فمد ذراعيه الصغيرتين يستنجد بجدتي التي توقفت عن الحراك والتنفس لبرهة من الوقت، بسبب المفاجأة والرعب، ثم خلّصت قدميها من شللهما المؤقت، وهرعت إليه كي تحاول إنقاذه، لكن الأوان قد فات، وشرب الصغير قدراً من الماء يملأ رئتيه، وطفح على سطح البركة مثل ورقة شجر كبيرة شاحبة.

دفعها جدي بعنف فسقطتْ على الأرض، وقفز في البركة، وهو يكاد يكون قد فقد عقله، وأخرج صغيره منها. جاءت الزوجتان تهرعان والأبناء كذلك. وضع جدي الطفل على الأرض، وحاول إنقاذه. ضغط على صدره ليُخرِج الماء الذي احتبس في بطنه، لكنه فشل.

عرفوا أنه قد مات، فأخذت أمه تضرب على وجهها، وفخذيها، وتشد شعرها، تريد الهروب من شعورها بالألم، لكن لا تعرف كيف؟ قالت كل الكلام الذي أمكنها قوله كي تعبّر عن فجيعتها، ثم نظرتْ إلى جدتي التي كانت ما زالت واقعة على الأرض، وكأنها قد فارقت روحها أيضاً، فهي مجرد جسد ينظر إلى كل هذا الذي

يجـري أمامـه بـلا حيلة. هجمـتْ عـلى جـدتي، وكادت أن تغتالها، نكشـت وجههـا بأظافر يديهـا الطويلة، وغرزت أسـنانها القوية في كل مكان طالته من جسـدها، ولـولا أن جدي أبعدها عنها لكانت قد قطّعت جدتي قطعاً صغيرة، ورمتها إلى الكلاب.

لم ينته الأمر عند هذا الحد، فقد اشـتكت أم الطفل الميت على جدتي عند مركز الشرطة، واتهمتها بقتل ابنها.

اقتـادوا جـدتي مُقيـدة بالأصفـاد إلى السـجن، وبقيـتْ هنـاك عدة أسـابيع، وعندمـا لم يجـدوا دليلا عـلى تقصّدها قتلـه أخرجوها من الحبس، وعادتْ إلى البيت مرة ثانية.

ما إن قدمت جدتي إلى البيت، واجتازت قدماها العتبة حتى انهالت عليهـا قطع الحجـارة الصغيرة الصلبة المختـارة بعناية لتكون حادة الأطراف.

قام الأولاد بجمعها من الحواري، والطرقات، بنيّة اسـتعمالها كأداة حـرب. ضربوا بها وجهها، فغطته بكلتا يديها، فاتجهت الحجارة إلى كتفيها، وبطنها، ورجليها، وكل أنحاء جسـمها، حتى لم تستطع أن تتغلب عليها، فانهارت على الأرض.

حاولـت والدتي وقـد كانت في الرابعـة عشر من عمرهـا آنذاك أن

تصد عـن أمها اندفاع الحجارة، الـذي كان كقذائف الهاون المدوية في سـاحة الحرب، وكانـت تُصاب أيضاً بجـروح في راحتي يديها، وحين كانت تحمي رأسها كانت الحجارة تضرب ساعديها، فأبعدها جدي بقوة، ووقعت على مجموعة من السـلال المصنوعة من سعف النخيل كانت مكومة على الجدار.

وقف جـدي أمام جدتي يحاول حمايتها، صارخـاً في زوجتيه وأبنائه الذيـن وقفوا مثل صفّ من الجنود الأشـاوس وهـم يؤدون خدمة جليلة للوطن. اندفع جدي نحوهم مشوّحاً بكلتا يديه، وقد امتقع لون وجهه، وكأنه سينفجر في أية لحظة، فانسل الجنود، وقائدتاهم، إلى داخل حجرتيهم، مغلقين بابيها خلفهم.

مسـحت جـدتي الدماء عن وجههـا ويديها بكمّ ثوبهـا، وقد زاغت عيناهـا فكأنهـا لم تكـن في بيتهـا، ولا تعرف أين هي؟ قـد تكون في أحـد البراري وحدهـا، والريح تدفعها بقـوة إلى الأمام، لكن تلك لم تكـن الريـح، وإنما جدي يسـحبها من قدميها، فوقع رأسـها على الأرض، وصـار يجرّها فوق التراب كما يفعـل بالخروف، ثم دفعها بقوة إلى داخل الغرفة، وأغلق الباب بالمفتاح، وقال لزوجتيه وأبنائه يهددهـم أن أحداً منهم تعرّض لجدتي بالأذى فسـيكون آخر يوم له

في هذا البيت.
لم يكـن يدري ما سـيفعل بأيّ منهم لو أنه خـرق ذلك الوعيد، غير أنه وجد نفسـه يقول ذلك مُرغماً كي يسـيطر على الوضع المشـوّش حد الجنون.

***

عندمـا ذهبـتُ يوم السـبت إلى المدرسـة كنـت متأخـرة، والطابور الصباحـي قـد انتهـى، والطالبـات دخلـن فصولهـن، بقـي معرفة أسـماء المعلمات المتغيبات عن الحضـور لهذا اليوم، وتوزيع حصص الاحتياط كما هي العادة.
كنـت متأخرة لأنني بقيت ليلة أمس قلقة بشـأن ما قصصته عليكم عـن جـدتي وعما عانته في تلك الفترة. لم أسـتطع النـوم، كأنما تحوّل جسـدي إلى مجموعة من الذرات، وانتقلـت هذه الذرات إلى حيث كانـت جدتي تتألم أو لا، لسـت أدري، لأنها بحسـب مـا قالته أمي كانت مُغيَّبة عما حولها، لم تكن تملك وعيها.
صباح الخير. لمَ أنت متأخرة اليوم؟ سـألتني المديرة. قلت لها: لم أنم جيداً. وانسـللتُ بخجـل إلى مكاني خلف المكتـب، أطالع في دفتر الحضور الكبير، والصفحتان ممتلئتان بالأسـماء والتوقيعات وزمن الحضور.

فجـأة وقفت طالبـة عند الباب. سـألتها المديرة: مـاذا تفعلين هنا؟ قالـت الطالبـة: المعلمة أرسـلتني. قالت لها المديـرة: إلى متى وأنت كثيرة المشـاغبة والكسل، سأحوّلك إلى طالبة منازل. كانت المديرة تقف أمام الطالبة، فمدت يدها أثناء ما كانت توبخ الطالبة بغضب، ودفعت بها من كتفها.

هـذا التـصرف يمكن أن تفعلـه المديرة، لأنها المديرة، حسـناً؟ لكن الطالبـة إمـا أنها لم تكن معتادة على أن يتـصرف أحد تجاهها بعنف، أو أن الأمر كان عادياً في منزلهم، إلى حد أن دفاعها عن نفسـها كان أمـراً بديهيـاً، إذ مـدت يديهـا هي الأخـرى، وضربت المديـرة التي استشـاطت غضبـاً زيـادة على غضبها، وتماسـكتا بالأيـدي، هكذا أمامنا، يا للهول.

نهضتُ من مقعدي مصدومة، وأنا أعرف أن نهاية هذه المشاجرة لن تكون خيراً أبداً، وأن أجواء هذا اليوم ستكون معكرة حتى نهايته. التففنا نحن طاقم الإدارة السـعيد الذي يبلغ عددنا خمسـة أو سـتة بحسب الحضور والغياب، على المديرة والطالبة اللتين كانتا تضربان بعضهما بانفعال شديد حتى أنهما لا تعرفان أين تقع ضرباتهما؟

قمنـا بفـضّ العراك بينهـما، محاولات أن نهـدئ من انفعـال المديرة الـذي وصل إلى السـقف، وأبعدنا كلتيهما عـن الأخرى. كان ذلك مضحكاً، في النهاية نجحنا في ذلك.

كان شعر الطالبة قد تشعث، وعيناها ارتفعتا إلى حاجبيها، والمديرة لم تغادرها صدمة المفاجأة بعد.
كان منظراً غريباً ظللنا نتذكره، ونتحدث عنه، وأحياناً ونحن تغرق في الضحك. المديرة اتصلت بولية أمر الطالبة، التي جاءت وأخذت ابنتها إلى البيت، وقد فُصلت ثلاث أيام.

***

تسقط الكتب على الأرض وتتناثر، ألتقطها من على الأرض، أرتبها على الرفّ في المكتبة الصغيرة التي احتلّت جزءاً من غرفتي. مكتبي الصغير الذي يليق بي، ويشبهني، وأفتخر أنني أملكه، وأنتمي إليه. ملجأي في حزني، وأوقات فراغي الكثيرة، وملي حين أكون قد ضجرت من بقائي بلا عمل، الذي عادة ما يكون في الإجازات.
سفري قليل، نحن لا نسافر كثيراً، نحب التواجد في بيتنا، والذهاب إلى نفس الأماكن، والعودة من نفس الأماكن. لا نحتفل بأعياد الميلاد، ووالداي لا يحتفلان بذكرى زواجهما، إنهما لا يتذكرانها أصلا، ولا يهتمان بذلك.
في بداية زواجهما كانا يحتفلان بأن يكون إناء التمر أول ما يوضع على مائدة الطعام، لأنه كان السبب في زواجهما، فجدّاي: والد أبي،

ووالد أمي، كانا يعرفان بعضهما بسبب تجارة التمر.
مـع مرور الوقت فقد التمر قيمته، وشـيئاً فشـيئاً بدأ يختفي من على مائدة الطعام، وقد نُسِي أمره تماماً، لم يعد والداي يجلبانه من المتجر، وعندما كان يُهدى إلينا في موسـمه، كانا يتحاشـيان النظر إليه وهو في الثلاجة، ويبقى هناك وحيداً مهملا.
الخـضراوات، والعصائر، والفاكهة تُخرج من الثلاجة، وتُسـتعمل، إلا هـو المسـكين، بات منبوذاً، ومـتروكاً ليجفّ، ثم يُرمى في سـلة المهملات.

***

لطالما شعر أبي، عندما كان يعيش مع أهله في المدينة المنورة، بأنه ليس بحاجـة إلى أحـد، وبرغم أنـه لم يكمل دراسـته في الكتاتيب فقد علّم نفسه القراءة والكتابة، وهو في الثامنة عشر من عمره تهجّى الأحرف في الجريدة إلى أن تمكن أخيراً من إجادة القراءة والكتابة.
في صبـاه عمـل في مزرعـة أبيه مع أخيـه الذي يكبره بسـنة واحدة، لكنـه لم يسـتمر في ذلـك، لأنـه كان يكره رائحـة الـتراب، كما كان يحمـل عـبء الزراعة. لكنـه كان يتواجـد يومياً في مطبـخ منزلهم، يشـمّ رائحة الزعفران والهيل والكركم الأصفر والليمون الأسود، وجميع التوابل الموجودة، ويسـاعد أمه في طحن البهارات، ومزجها مع بعضها، ووضعها في قارورات.

لا أحـد يدري من أيـن حصل على هذه الموهبة؟ فلـم يقم أحد من رجال العائلة بهذا العمل من قبل، لكنها ظلت مجرد هواية، ولم يكن يجرؤ على اتخاذها عملا يدرّ عليه دخلا ثابتاً طالما كان أبوه مسـئولا عنه، ولكن ما أن تزوج واستقل بحياته، وسافر إلى الرياض ليعيش فيها، ويكوّن أسرته حتى فتح دكانه وبدأ يبيع مختلف أنواع البهارات التـي كان مولعاً بها، ولم تعترض أمـي على ذلك، فقد وجدته عملا مختلفـاً. لم تكن تحبـذ أن يعمل زوجها هو أيضاً في تجـارة التمر مثل أبيهـا، لأن ذلك سـيكون أمراً لا يُطاق على نحـو ما، وهي تفكر في طريـق مغايـر عمّا ألفتـه فيما مضى. سـيكون ذلك مـؤشّر خير لحياة أفضـل، وقد قضت معظم حياتها تحارب ذلك الماضي الذي لم يكن له سـوى وجه واحد، لهذا فقد سـار الأمر على ما يرام، وقد خفّت وطأة سيطرة أبيه عليه حتى لم يعد لها وجود، مجرد اتصالات متفرقة في مناسبات متباعدة. وعندما مات أبوه، وبقيت أمه مع ابنها البكر الذي سافر وتزوج في الخارج واستقر نهائياً، لم ترغب الأم في القدوم إلى الريـاض، لقد اعتادت على البقـاء في المدينة، ولكن في ظل تلك الظروف لم يعد بقاؤها وحيدة في المنزل يرضي أقاربها.

كان لـدى عمّـي وكالة عامة عـلى كل شيء، فبـاع المزرعة، وقبض ثمنها، وسافر به. تقول جدتي من الجيد إنه لم يبع المنزل أيضاً. كانت في الرابعـة والثمانين من عمرها، شـعرتُ بالغرابـة لفكرة مجيئها إلى منزلنا، فأنا لم أرها منذ أن كنت في العاشرة من عمري، حينما ذهبتُ

مـع والـديّ في الإجازة المدرسـية لزيـارة منزل جديّ، ثـم توقفت الزيارات بعد ذلك، التي كانت من الأساس قليلة.
لم تكـن أمـي تشـجعنا عـلى القيـام بتلك الزيـارات، وكانـت تبقى متضايقـة طـوال الوقت الـذي نكون فيه في بيت جـدي حتى نقوم بحزم حقائبنا، والعودة ثانية إلى بيتنا في الرياض.
تقـول إن أبي يتحـول إلى شـخص آخـر عندمـا يكون هنـاك، تكاد لا تعرفـه، ويكون مـن الصعب التفاهم معـه، وفي زيارتها الأخيرة تشـاجرت مع جدي لأنه حاول تزويج أبي مـن ابنة أخيه التي تبلغ مـن العمر خمسـة وعشرين عامـاً، وطُلِّقـت لتوهـا، ولم يكن لديها أبنـاء. رأى جـدي أن يزوّجها من أبي لأنها أفضـل من أمي المتعالية والمغـرورة والتي لا تتحدث معهم سـوى ببضع كلمات كلها أوامر ونواهي، وكأنهم يعملون لديها.
لم تكـن أمـي متأكدة في البدايـة من الأمر، وظنت أنهـا مجرد أوهام، لكنهـا عندما شـاهدت الفتاة تغرس نفسـها في كل مكان في المنزل، وكأن ذلـك كان متعمـداً، ويتبع خطة معينة، لم تسـتطع المجازفة في البقـاء أكثر مـن ذلك، وأصرّت عـلى أبي أن نرحـل في أسرع وقت ممكـن، وفي الصباح الباكر كنا نركب السـيارة، ونعود أدراجنا أمام ذهول الجميع، حتى لم يتسـن لجـدتي أن تودع ابنها وحفيدتها وداعاً كافيـاً وهي تعلـم بأنها لن تراهما سـنوات طويلة بعـد ذلك، كانت تغالب دموعها وتشـعر بأنهـا تفتقدنا منذ الآن، بينـما كانت أمي في

السيارة تطلق صوت البوق مراراً كي تستعجلنا في القدوم، أما جدي فقد رفض توديعنا وبقي في غرفته يسب ويشتم زوجة ابنه التي لم تمهله ليقضي بقية أيام الإجازة مع ابنه وحفيدته. ونحن الآن ننتظر قدوم جدتي إلينا، تلك المرأة الضئيلة الحجم، الناعمة الملامح، وتتمتع ببشرة بيضاء مثل الحليب.

في زيارتنا الأخيرة، عندما كانت جدتي في مزاج رائق قصّت على أمي كيف كان جدي يهيم بها حباً، وأنه فعل المستحيل ليتزوجها. كانوا جيران، الباب أمام الباب، وكان هو ينتظر في الزقاق، مقابل باب منزل جدتي. كانت في الرابعة عشرة من عمرها، على أمل أن تظهر من فتحة الباب في أية لحظة، ويلمحها، ولو لمحة خاطفة، يملأ بها عينيه.

حب كما في الأفلام العربية، والكتب الرومانسية، مثل قصة قيس ولبنى، وجميل وبثينة، وعبلة وعنتر، وهي كانت تبادله الشعور أيضاً، وتبقى الليل ساهرة، تعدّ النجوم، حيث كانت تنام في سطح منزلهم كما هي عادة الأهالي في ذلك الوقت، وحين يداهمها النوم تنام وهي تتلو اسم جدي، وتحبس ملامحه الفتية بين رموش عينيها. كان حباً عظيماً، اعترف به الجميع، وكان مضرب الأمثال، حب مزنة وفالح، أشهر من نار على علم.

من المدهش أن يحدث ذلك في زمن كانت القلوب فيه بحسب ما أعتقد تشبه الصخور الصلدة، من النادر لها أن تعرف مثل تلك المشاعر الرقيقة، وكان زواجهما تحفة من التحف الثمينة التي يواجه

المرء من أجلها الأهوال، ربما لهذا أراد جدي أن يزوّج ابنه من امرأة ظن أنها يمكن أن تجعله يعيش مثل تلك المشاعر.

كانت أمي عاجزة عن أن تحب أبي بتلك الطريقة الملتهبة، لأنها لم تكن تعرف كيف تفعل ذلك؟ لم تكن امرأة عاطفية، والمشاعر كانت تثير اشمئزازها. كانت تقول إنك عندما تريد أن تكون ضعيفاً ما عليك سوى إظهار عاطفتك للآخرين، ستدوسك الأقدام حالما تفعل ذلك.

لا مجال لتغيير أمي على الإطلاق، فالأفكار التي كوّنت شخصيتها لم تتبدل، وكأن لا شيء تغيّر طوال مسار حياتها. لا يرغب أبي في مناقشة هذا الأمر سواء مع نفسه، أو مع جدي. لقد اعتاد على حياته معها، وبرغم أن مشاعره كانت تتجمّد أكثر فأكثر كل يوم، إلا أن ذلك لم يبدُ قادراً على إثارة انتباهه بما يكفي كي يمعن النظر في هذه العلاقة الفاترة، التي تشبه الرماد .

جاءت جدتي إلى منزلنا، وبرغم غرابة الأمر إلا أنني شعرت بأنني محظوظة، لأنني سأنعم بدفئها، وسيكون هناك حنان طبيعي، هذا على الأقل ما أملتُ به.

لا ينبغي أن يرتفع سقف توقعاتي عالياً كي لا أحظى بخيبة الأمل، غير أن جدتي كانت بالفعل امرأة رائعة حقاً.

كانت غرفتها في آخر الرواق، وقبلها غرفتي، وفي طرف الرواق غرفة والديّ. وكنت أسمع في وقت متأخر من الليل صوت أشياء

تقـع عـلى الأرض في غرفة جدتي، ولم أسـتطع التكهن ما الذي كان يحصل؟ وكنت أخشى أن أطرق عليها باب غرفتها.
كانت تدخل غرفتها عند السـاعة التاسعة مساء، ولا تخرج منها إلا في السـابعة من صباح اليوم التالي، وعندما كنت أدخل إلى غرفتها، وهي لا تكون هناك، في محاولة لأن أرى شيئاً غريباً قد يفسر لي تلك الجلبـة التي أسـمعها في الليـل، لم أكن أرى شـيئاً، بل كان كل شيء في مكانـه الطبيعـي، والغرفة مرتبة على أكمل وجه، وكان هذا يكاد يفقدني صوابي، وأصيخ السـمع عندما يكون الجميع نيام، وأسـمع صوت الجلبة نفسـها، وصوت أشياء تسقط من فوق على الأرض، ولا شيء آخر، وكان كأن مجموعة من الجن الصغار يلهون بإيقاعهم الأشـياء، وربما لم تكن جدتي تعلم، وكانـت تغط في النوم، ويمكن أن يكونـوا جـاءوا معها من المدينة، انسـلوا إلى حقائبها وهي تشـد الرحال إلينا، وتغلق باب بيتها، لأنهم لا يستطيعون مفارقتها، وقد تكون تعلم بأمرهم، و سمحت لهم أن يفعلوا ما بدا لهم في غرفتها، ليشـعروا بأنهم يتصرفون بحرية كاملـة، وأن لا أحد يعلم بأمرهم، وهذا سـيجعلهم يمرحون دون إثارة الانتبـاه إليهم، أو جعل أحد من أفراد البيت يقلق بشأنهم.

***

حسـناً، لم تكن جدتي سعيدة معنا، ليس لأنها لم تشعر بالراحة بيننا، ولكن لأنها كانت تفتقد إلى منزلها، فهناك كانت كل ذكرياتها.

تقول لم أعد أشعر بوجود جدك حولي، كأنه لم يعد يرغب في زيارتي كما كان يفعل في بيتنا هناك، كان يزورني كل ليلة، ويجلس على حافة السرير يحكي لي، ولم يكن ينصرف إلا بعد أن أغمض عينيّ، وأذهب في النوم.

هنا أنا لا أنتظر شيئاً، يومي مثل أمسي، لا مرح، لا شغف. وهذه الكلمة «شغف» مني أنا. لم تكن جدتي لتعرف مثل هذه الكلمة لكنها كانت تعيشها حرفياً، كان شغفها هو أن تنتظر زيارة جدي لها مساء كل يوم، وهي لهذا السبب استمرت في العيش، واحتفظت بذاكرتها قوية ودقيقة.

كل ذكرياتهما معاً راسخة في رأسها، لم تهرب منها ولا لقطة صغيرة تافهة. كل شيء هناك محتفظ بنقائه وسطوعه والرهافة الخاصة به.

كانت هناك أوقات كنت أقضي فيها وقتاً ممتعاً مع جدتي خاصة عندما يُعرض في أحد القنوات الفضائية فيلماً مضحكاً.

في أحد المرات تفرجنا أنا وهي على فيلم عربي اسمه «الليمبي» بطولة محمد أسعد، وظلت جدتي تضحك طوال الفيلم.

كان نصف ضحكها على كلام الممثل الذي يقوله بطريقة مضحكة، والنصف الآخر على تعبير وجهه، وكنت سعيدة إذ أراها مبتهجة هكذا. كانت أمي أحياناً تشاهد التلفزيون معنا، وحين كانت تضيق بصوت قهقهات جدتي العالية تدخل إلى غرفتها وتتابع مشاهدتها للتلفزيون هناك.

سألتْ أمي أبي عمّا إذا كانت جدتي ستعيش معنا إلى الأبد، وكانت إلى الأبد تلك تجعلها ترتجف من الهلع، فلم تكن تتصور أنها ستظل ترى جدتي أمامها طوال السنوات القادمة من حياتها، وكونها لا تملك خياراً كان يصيبها بالتوتر الشديد، وبالعصبية المفرطة في بعض الأحيان، ولم تكن تملك السيطرة على أعصابها فكانت تثور لأتفه الأسباب، وتوجه غضبها للعاملة المنزلية وكأنما تتصيد لها الأخطاء كي تثور في وجهها، وهي في الحقيقة إنما تثور في وجه بقاء جدتي عندنا إلى أمد غير معلوم. ثم ظهرت لجدتي هواية غريبة لم أكن أبداً أظن أن أحداً في عائلتنا يمكن أن يقوم بها، كانت تعالج النساء اللواتي يعتقدن بأنهن مصابات بالحسد أو السحر.

كانت البداية خفيفة، مع بضعة نساء من الجيران يزرننا في بعض الأيام، وصديقات أمي بالطبع عندما يكون دور أمي لتقوم بواجب الضيافة لهن، وبعد أن وجدن أن علاج جدتي كان نافعاً ازداد عدد اللواتي يطرقن باب بيتنا طلبا للعلاج.

لم تكن جدتي تعرف أن عدد النساء المريضات أو المتوهمات في هذه المدينة كبيراً إلى هذا الحد، كانت تعالج في مدينتها أيضاً لكن قلة من النساء هناك كن يشعرن أنهن بحاجة إلى علاج.

أصبحت النساء في كل مكان في بيتنا، في غرفة مجلس الرجال، وفي غرفة مجلس النساء، وفي الصالة، وفي صحن البيت يتقيأن من أثر السحر كما تقول جدتي.

بـات أبي يخرج إلى محله باكراً لئلا يكون موجوداً عندما تأتي النسـاء سـائلات عن جدتي المنقذة إياهن من الدمار والهلاك، ولا أستطيع أن أقـول لكم كيف كان شـعور أمي؟ ومـاذا فعلت كي توقف كل ذلـك الهراء كـما وصفته؟ لكنهـا لم تفعل الكثير أمام النسـوة، مخافة أن تثـير حنقهـن عليها، فيبدأن في الحديث عنها بالسـوء وهو الأمر الـذي لم تكن تحتملـه، مما جعلها تصمت إزاء ما تـراه، وليس ذلك فقـط مـا كان يجعلها تنزعج، ولكـن لأن جدتي كانـت تشركها فيما تفعلـه، فكانت تطلب منهـا أن تذهب إلى المطبـخ، وتجلب قارورة ماء مقروء عليها، وكانت تفعل ذلك أمام النسـاء الجالسات بحيث لم تكن تستطيع الرفض.

كانـت تقول لأبي إن أمـك تتعمّد إحراجي، وإني بتّ أسـاعدها في عملها، أخشي أن تشرّبني الصنعة! كانت تقول ذلك ساخرة، وكان أبي يضحـك وقد ناله العجب ممـا تفعله أمه، لم يكن يتصور أن مثل ذلك يمكن أن يصدر عنها.

قالـت أمي في لحظـة غضب عارمة: يجـب أن يتوقف كل ذلك. قل لأمك هذا. فكان أبي يجيبها: سأقول لها. إنها تسلّي نفسها فقط، علينا أن نقدّر الظرف النفسي الذي تمر به. فتقول أمي وماذا عن ظرفي أنا النفسي ؟ وظرف البيت النفسي كله؟ ماذا عن ابنتك التي أصبحت كالمشـدوهة تنظـر للداخل والخارج، ولا تكاد تعي شـيئاً مما يحدث حولهـا، ومن ذا الذي يفعل؟ قل لي؟ وكانت أمي إذا اسـتمر الحال

عـلى ما هو عليه تقول لأبي: إلى متى ونحـن ندور في هذه الدوامة؟ لم أعد أحتمل، يجب أن تفعل شـيئاً. وتظـل تصرخ كالمجنونة أفعلْ شيئاً، أفعلْ شيئاً، وإلا فلن أبقى في هذا البيت، سأرحل، أجهل إلى أين، لا يوجد مكان محدد، لكني سـأفكر بحل، حتى لو بقيتُ لدى واحدة من صديقاتي المسنات فلن أظل تحت رحمة ما تفعله بنا أمك المعتوهة. وكان أبي يحار في أمره، ولا يجرؤ على مفاتحة جدتي.

كانت جدتي قد بدت سـعيدة ومشغولة بالنسـوة اللواتي يزرنها من مختلـف المدن، فقد اشـتهرت وأصبحـت معروفـة، وكان أبي حين يحـاول أن يبـدأ معهـا الحديـث يفشـل، وفقـط يصغي إليهـا وهي تتحدث بكل ذلك الحماس مما يبقيه صامتاً، ولكنها فقدت حماسـها هـذا بمرور الأيام، وبزيادة الضغط عليها من قبل الزائرات اللواتي يـزداد عددهن يومـاً بعد يوم مما جعلهـا تغلق عليها بـاب غرفتها، وترفـض الخروج إليهـن، فكنتُ أطـرق عليها الباب طرقـاً خفيفاً كيلا تثور أعصابها، وأقول لها بصوت خفيض إن الكثير من النسوة في انتظارهـا، ماذا أقول لهن؟ أمي غاضبة جداً، وتكز على أسـنانها، ضغطها مرتفع.

تقول جدتي: لا أريد رؤية أحد، أريد العودة إلى بيتي.

كان هذا مفاجئاً، العودة إلى بيتها، لم تثر هذه المسـألة أبداً منذ مجيئها قبل سنتين، وها هي الآن تندفع مرة واحدة، وتقولها بصراحة: أريد العـودة إلى بيتي، لم أعد أريد العيش معكم، أنتم أشـخاص مملون،

الحيـاة معكم مثل أن تتناول الرز بدون ملح، ليس لها طعم. ويصل مثل هذا الاعتراض على المعيشة إلى أبي الذي لا يفعل شيئاً سوى أن يميل إلى الحزن والصمت، بينما تظهر على أمي بوادر فرح، لا تحاول كتمانه، فهذا ما تريده منذ البداية.

لم تعـد النسـاء يحضرن إلى منزلنـا، والبيت أصبح فارغـاً كما كان في السـابق، وعاد روتين الحياة الرتيـب إلى ما كان عليه، وفقدت رؤية أنـواع مختلفة من الوجوه الأنثوية، وسـماع حكاياتهـن، وأحزانهن، ومشاكلهن الغبية.

***

في الأيام التالية لم تعد جدتي هي نفسها التي جاءت إلينا من المنطقة الغربيـة من البلاد، بل أصبحتْ مُشـتتة، وران عليها صمت ثقيل، وفجأة بدأت تسألني عن اسمي، ومن أكون؟ وكان هذا صاعقاً لي، ولم أجرؤ على قول شيء لوالديّ، إلا أنهما اكتشفا ذلك أيضاً، عندما نسـيتْ أسـميهما، ومن يكونان؟ وكانت تدخل غرفـة أي أحد فينا وتظنها غرفتها، ولا تعرف مكان الحمام، فآخذها إليه، وتسـأل أين أنا؟ كان هذا سـؤالها المُفضَّل، تظل تكرره، وكأنما لا تعرف سـواه، لماذا أنا هنا؟ ولم أكن أعرف بماذا أجيبها؟ لقد أشـفقتُ عليها كثيراً، وكنت أبكي وأنا أراها على هذه الحال.

قال أبي بحزن بالغ: لابد أنه الخرف، لقد فقدت أمي ذاكرتها.

قالت أمي: هل هو الزهايمر؟

***

في يوم كنا أنا وجدتي في الحديقة الصغيرة القريبة من منزلنا، حكيتُ لها قصة تذكرتها من طفولتي، برغم معرفتي بأن ما سأقوله لن يمكث في رأسها بأكثر مما تفعل قطرات المطر على صخرة ملساء.
قلت لها: عندما كنت في الحادية عشرة من عمري، وأنا ذاهبة إلى مدرستي شاهدت رجلا كبيراً في السن يجلس على حجر في رصيف الشارع.
كان أسمر البشرة، وتجاعيد كثيرة في وجهه، يرتدي ثوباً أبيض عريضاً، ويضع غطاء أبيض على رأسه، يسقط طرفاه فوق كتفيه.
لمحني قادمة فابتسم لي، كان فمه يشبه نفقاً أسود، خالياً من الأسنان. مدَّ يده إليّ وكان فيها قطعة نقود، أسند كوع ذراعه على ركبته، فاتخذتْ ذراعه هيأة قوس. اقتربتُ منه مثل جرو صغير، فابتهجت عيناه. التقطت قطعة النقود، وركضت هاربة.
لم أتحدث إليه، ولم أعرف من يكون؟ استمر ذلك بضعة أيام، وكأنما كان بيننا تفاهم ضمني: هو يفتح يده التي تشبه منقار طائر اللقلق، وقطعة النقود تلمع فيها، وأنا أتقدم، أخطف المال وأهرب. لا أدري كيف علمت أمي بالأمر؟ فعندما عدتُ في أحد الأيام من المدرسة تلقتني بصفعة قوية على وجهي، وسألتني: من ذلك

العجـوز الذي تأخذين منه المال؟. لم أردّ بشيء لأنني لم أكن أعرفه، ربـما أراد فقط أن يكـون داعماً لي، وقد أكون أشـبه ابنته التي ماتت منـذ وقت قريب وتركته وحيداً، من يدري؟ لابد أن لديه قصة يود لو يحكيهـا لأحدهم. بعد تلك الصفعة غيّرتُ طريقي إلى المدرسـة كـي لا أضطر إلى رؤية يده، والتقاط النقـود كطائر يأخذ حبة قمح بمنقاره.

أتسـاءل يا جدتي إذا كان ذلك العجوز قد افتقدني؟ أو تسـاءل أين ذهبـت؟ أتعتقدين أنه ظن بأنني قد متّ أيضـاً كما ماتت ابنته؟ هل حـزن لغيـابي؟ أو رغـب في رؤيتي لمـرة واحدة أخيرة كـي يقول لي شيئاً، ليعتذر مثلا لأنه تسبب لي بالألم، وليقول إنه ما كان يقصد أن أتعرض للعقاب بسـببه، وإن نيتـه كانت طيبة، إنه كان طيباً ويحبني كابنتـه، أراد فحسـب أن يعتنـي بي، لكـن النـاس يا ابنتي سـيئون، أفكارهم مُظللة، يقتصّون مني لأن قلبي عطوف.

هـل تأكّد لذلـك العجوز بـأن كل الذين يحبهم يموتـون في النهاية ويتركونـه وحيداً؟ لمـاذا يرحلون ويبقى هـو؟ ألا يعرف أن لجذور النباتات الطرية حياة قصيرة، بينما الأشجار القوية تصمد جذورها في باطن التربة قروناً طويلة؟!

لا أدري لمـاذا قلت لجدتي كل هذا الـكلام؟ وماذا عنيت به؟ ربما لم أرغب في نسـيان ذكرياتي أنا أيضاً، أو رغبت فقط في أن أحثّها على تذكر ماضيها.

كـما توقعتُ فلم تكن تصغي إلى أي شيء مما قلته لها، بل كانت تريد أن تمشي مبتعدة. أمسكت بيدها، وعدت بها إلى البيت.
كانـت جـدتي قبل أن تفقد ذاكرتها قد قالت لأبي إن زوجها ظل يزورها في المنام ثلاث ليال متتالية طالباً منها أن تعود إلى بيتها في المدينة، وأنه لا يسـتطيع متابعة زيارته لها هنا، والمكوث قرب سريرها، والتحدّث معها إلى أن تغمض عينيها مستغرقة في النوم كما اعتاد أن يفعل.
لهـذا طلبتْ جدتي العـودة إلى بيتها حيث ذكرياتها لم تزل بانتظارها، لكن أبي لم يسـتطع السـماح لها بالمغادرة، رفض ذلـك رفضاً قاطعاً، قـال بأن أقاربي سـوف يأكلون وجهي، وهو تعبـير عن انتقادهم له إن هو فعل ذلك.
لقد طرأتْ هذه الفكرة على بالي، قد يكون جدي هو الذي يوقع الأشياء أرضـاً في غرفـة جدتي، وليـس الجن كما كنـت أعتقد، لأنـه حانق عليها بسـبب بقائهـا عندنا، قـد يكون هذا صحيحـاً، وإلا فما الـذي قد يكون السبب عدا الجن، أو هي نفسها لأنها مستاءة؟ لكن كيف ترمي بالأشياء ثم تعيدها إلى أماكنها؟ أين المتعة في ذلك؟ أعذروني فأنا مُشوّشة.

***

يغلـق جدي باب الغرفة التي يحتجز فيها جدتي عندما يريد الخروج من المنزل، ويبقيه مفتوحاً طالما هو في البيت.
تخـرج جدتي من غرفتها حالمـا تجد الباب مفتوحـاً، وتجري في فزع لا

يمكن وصفه، رافعة ذراعيها في الهواء، وكأنما أحد ما يطاردها.
الجميع كان في ذهول تام، ينظر إلى ذلك المشهد السريالي المحزن.
لقد جُنت المرأة. قال جدي.
وكانـت فيما تجـري بكل قوتها، حافية القدمـين على الأرض المتربة، تصيـح بهـم كي يمنعـوا الطفل الصغير عـن مطاردتهـا، الذي كان يجري خلفها مادّاً يديه الاثنتين إليها، طالباً منها إنقاذه.
تقول لهم: أبعدوه عني، أبعدوه عني.
وبما أنه لم يكن ثمة أي طفل يطارد أحداً في صحن المنزل فقد تصدّى جدي للإمسـاك بها، ودفعها بقـوة إلى داخل حجرتها، وتقييد يديها في عمـود السريـر، وكانـت تظل هكذا طـول اليـوم، وعندما يحين موعـد إطعامها يفلت يدها اليمنى كي يتسـنى لها الأكل، بينما يدها الأخرى مربوطة في العمود.
كانـت أمي تراقب ما يجـري بأنفاس تصعد وتهبط بصعوبة بالغة في صدرها، وبقلق شـديد. لقد نُعتـت أمها بالجنون أمامها، وعوملت مثـل بهيمة من البهائم، بكل ذلك التطرف والقسـوة، مما جعلها في أحد الأيام تفك وثاقها.
كان الوقـت ظهـراً، والجميع ينام القيلولة، وأبوها راقد في فراشـه، وأمهـا بين النـوم واليقظـة جالسـة في مكانها عـلى الأرض. عندما حـررتْ يـديّ أمها فوجئـت بها تنهـض مسرعة، وتنطلـق راكضة إلى الخـارج، وهـي تتلفت إلى الخلف وتصرخ، ثـم ارتقت درجات

السلم إلى سطح المنزل. حاولت ابنتها اللحاق بها، وقد أدركت أنها ارتكبت خطأ فادحاً بفك وثاقها، وقبل أن تتمكن من منع أمها كانت الأخيرة قد قفزت من فوق الجدار بلمح البصر، وارتطمت بالأرض، لتصبح جثة هامدة.

***

قال أبي لأمي يجب أن تسيطري عليها.

قالت أمي: كيف بالله عليك؟ هل أحبسها في غرفتها؟ هل هذا ما تريدني أن أفعله؟ أنت مجنون، كلكم أيها الرجال تفتقدون إلى العاطفة الإنسانية.

لم يستوعب أبي ما كانت تعنيه، لأنه لم يكن يعلم شيئاً عن الفوضى التي تعبث بعقلها. كان يعلم شيئاً بسيطاً فقط، لكن لم يتخيل أبداً حجم تلك الفوضى الحقيقي.

قال لها: ليس عليك أن تفعلي شيئاً، أبقيها فقط بعيداً عن باب الخروج، لأنها إذا خرجت من المنزل سوف تتوه، ولن نعثر عليها أبداً. ثم انصرف إلى دكانه، وتركها لمسئوليتها الجديدة.

لقد جعل هذا الحدث كل آلام أمي الدفينة تصحو فجأة من سباتها الذي استغرق كل تلك السنين، لكن لطالما كانت هذه الآلام حية في أعماقها، تدير حياتها بدون أن تتنبه لها.

لم يمت شيء قط من الماضي، والآن كيف يمكنها أن تمنع تكرار

ما سبق حدوثه؟ شعرتُ بأن من واجبي أن أشاركها المسئولية، لكنها لم تشأ أن أفعل ذلك. كانت تحاول أن تجعلني بعيدة، كأنما لتثبت لنفسها بأنها قادرة وحدها على القيام بالأمر، كأنما المسألة أصبحت تحدّي لذاتها، أو محاولة إثبات شيء ما بينها وبين نفسها، وقد أدخلت الجدة التي تتعرض للخرف بهذا الأمر.

لقد آلمني أن أُستبعَد هكذا عن مساعدة الجدة. أردت أن أكون إلى جانبها في لحظاتها هذه التي تشعر بها كأنها فقاعة صابون طافية في الهواء، أن أحفل بها، أن يكون ثمة ما يهمني في هذه الحياة، أن أغادر لا مبالاتي، أن أحب أحداً بقوة كي لا أرى أيّاً من عيوبه، ويكون كاملا أمامي، أدخله في عمق أعماق قلبي. كان هذا عملي، مهمتي في الحياة، أملي الجميل الذي أدافع عنه بكل كياني.

كانت جدتي ميدان حرب بيني وبين أمي، كل منا تريد أن تنتصر من أجل نفسها، وليس من أجل جدتي. عندما تنشغل أمي، كنت آخذ جدتي إلى السوق أو إلى السوبر ماركت أو كنا نجلس معاً في المتنزه القريب من منزلنا.

كانت بطبيعة الحال لا تقول كلاماً منطقياً معقولا، يُفهم منه عبارة واحدة واقعية، لكنها كانت تتذكر الماضي البعيد جيداً، وكأنما قد أسعدني أن يكون في رفقتي شخص ليس له أي إرادة على نفسه، مثل قط أليف، أو كلب أصحبه في نزهة.

أعرف أن هذا سيجعلكم تكرهونني، لأنه بعيد جداً عن الإنسانية،

تلـك التـي تكلمت عنها أمي فيما سـبق، رغـم أني لم أفهمها فهـما دقيقاً، وكنـت حين أعـود إلى البيت، وبصحبتي جدتي سـالمة معافاة، ولم تضيع في الشـوارع، ولم تلتهمهـا المحـلات، كانت أمي تـصرخ بي غاضبة: أين كنـت؟ وكانت تحدثني أنا، ولم تكن توجّه حديثها إلى الجدة، وكأنما ليس لهـا وجود، لقد أصبحتْ مثل أي قطعة أثـاث، لا يمكن توقع أن يصدر منهـا إجابة يُعتدّ بها. وفي الليل حينـما نجلس جميعاً أمام التلفزيون، تظل جدتي تدور في المنزل، وتعبر أمامنا، قاطعة علينا البرنامج الذي نشاهده، وتعود ثانية وتكرّر ذلك خمس أو سـت مـرات، حتى بات انتباهنا ينتقل من التلفزيون إليها، ونتساءل إذا كانت ستأتي الآن، أو بعد خمس دقائق، وكان هـذا يجعلنـا وكأننـا نصبـح قريبين من الجنـون، فنغلـق التلفزيون سريعاً، ونطفئ الأنوار، ونقول لبعضنا تصبحون على خير.

تمت